مشاغب

(مجموعة قصصية)

أحمد جمال الدين رمضان

أسم الكتاب	مشاغب
أسم المؤلف:	أحمد جمال الدين رمضان
رقم الأيداع	٩٣٦٥\٢٠٢٣
الترقيم الدولي	٩٧٨ – ٩٧٧ – ٦٧٤٥ – ١٠ – ٠
المدير العام	فتحي المصري
المدير التنفيذى	عمرو المصرى
تليفون	٠١٠٠٨٤٠٠٧٩٧ \ ٠١١٤٧٨٢٤٤٠٢ \ ٠١٢٧٨٨١٠١٨٧
تصميم الغلاف	مريم المصري

يصدر عن دار همسة للنشر والتوزيع

همسة
للنشر و التوزيع

مشاغب

اجتهاد

كنت في حفل عيد ميلاد أحد الأصدقاء، التقيت بعدد من المدعوين فتبادلنا الحديث لدقائق في مواضيع شتى .. هنأ أحدهم صديقي بعد الانتهاء في وقت قياسي من مشروع سكني كان يعمل عليه، وهو ما أكسبه شهرة كبيرة .. أكد صديقي بفخر أنه واصل العمل ليلا ونهارا من أجل الانتهاء من المشروع، وبذل جهدا غير طبيعي من أجل ذلك .. ضحك أحدهم وهو يقول:

- المهم أن تعمل بذكاء وليس بكد .. وإلا دفع السكان الثمن

ابتسم البعض على الفور .. علق أحدهم قائلا بهدوء:

- كلامك صحيح .. لا يهم مدى إخلاصك في العمل طالما تعمل بحماقة في النهاية، وبخاصة في بلدنا هنا .. دعني أحكي لكم قصة ..

سكت قليلا، قبل أن يكمل بهدوء:

- عملت لفترة كطبيب في وحدة طوارئ طبية على أحد الطرق السريعة .. عادة نقضي معظم اليوم بلا عمل فالطريق لا يستخدمه كثير من السائقين بسبب ضعف الخدمات عليه، كما أنه طريق دولي يمتد لمسافة طويلة في قلب الصحراء مما يجعل البعض يتخوف من استخدامه، لذا الحوادث هناك قليلة .. ذلك اليوم، استلمت مناوبة الليل كالعادة، الطقس سئ للغاية والمطر لا يكاد يتوقف .. يفترض وجود اثنان من الأطباء وممرضتان وعامل في

المناوبة الليلية بالإضافة إلى طاقم سيارة الإسعاف الملحقة بالوحدة، لكن غاب زميلي بسبب ولادة زوجته .. في السابعة عادت سيارة الإسعاف وهي تحمل أحد المصابين؛ سائق شاحنة ضخم تعرض لحادث بسيط كما يبدو، لم أهتم بمعرفة تفاصيل الحادث من المصاب فعملي يقتصر على علاجه، كما أن الشرطة ستتولى لاحقا استجوابه على أي حال .. لم تكن إصابته خطيرة، قدمت له بعض الإسعافات الأولية اللازمة على الفور .. لم أسلم من ثرثرته في الدقائق الأولى من علاجه فمنعته عن الكلام، ثم أمرت بحجزه في الوحدة حتى الصباح للاطمئنان بصورة أكبر على حالته بعد أن اشتبهت بتعرضه لارتجاج في المخ .. عدت لمكتبي، لكن بعد نصف ساعة فقط حملت سيارة الإسعاف مصاب آخر، تلك المرة حالته أسوأ؛ رجل أربعيني انقلبت سيارته وتطايرت بعض محتوياتها كما يبدو لتسبب جرحا غائرا في مؤخرة رأسه وعدة جروح سطيحة أخرى بالإضافة إلى كسر مضاعف في ذراعه الأيمن .. وصل المريض وهو فاقد للوعي، ولمدة ساعة عملت دون توقف لإيقاف النزيف وخياطة الجرح ثم تضميد ذراعه، فقد المصاب كثير من الدماء فقمت بنقل دم له في الحال ثم طلبت من الممرضة متابعة حالته باستمرار حتى يفيق، واتصلت بالمركز الرئيس لطلب أكياس دم إضافية، وطلبت التحدث مع أحد المشرفين لإرسال طبيب آخر لمعاونتي فلم يرد علي أحد ..

ما كدت أستريح حتى سمعت سرينة سيارة الإسعاف مجددا، بدا اليوم مزدحما على غير العادة .. لم تكن حالة المصاب خطيرة تلك المرة على أي حال، عالجته سريعا وكتبت له تصريح خروج، لكنه قرر البقاء في الوحدة حتى الصباح فالطقس يزداد سوءا في

الخارج .. سمحت له بالانتظار في ردهة الوحدة .. شعرت بإرهاق شديد فتوجهت إلى استراحة الأطباء .. وقبل أن تمر نصف ساعة، خرجت سيارة الإسعاف مجددا بعد أن تلقينا بلاغ لتعود سريعا، تلك المرة وهي تحمل عائلة كاملة .. لم تكن حالة الأب خطيرة؛ فقط بضع خدوش وكسر في الأنف تسبب له بنزيف فعملت على إيقافه على الفور، أما الأم والتي كانت لسوء حظها تجلس في مقدمة السيارة مع ابنتها الصغيرة كما سمعت من الأب دون أن تربط حزام الأمان، فقد كانت حالتها حرجة وفقدت كثير من الدماء .. من حسن الحظ أنها ضمت البنت بقوة لحمايتها فلم تتعرض الصغيرة إلا لبعض خدوش ونوبة فزع قوية فلم تتوقف عن الصراخ .. تبينت أن الأم بحاجة إلى نقل دم بصورة عاجلة، لمدة ساعة انشغلت تماما بالحالة، نفدت لدينا أكياس الدم الموجودة في الوحدة وما زلت بحاجة للمزيد، وأقرب مستشفى على مسافة بعيدة، ربما لن تصل أكياس الدم في الوقت المناسب لو تواصلت معهم .. قرر الأب التبرع بالدم لكني رفضت خوفا من أي مضاعفات قد تصيبه .. اضطررت دون تفكير للتبرع ففصيلة دمي وحدها بين العاملين في الوحدة وقتها كانت تتطابق مع فصيلة دم الأم .. انتهيت فاصطحبت الأب لإجراء بعض الأشعة، ثم طلبت منه الراحة .. توجهت للردهة، تطلعت للساعة، لم ينتصف الليل بعد، لكني كنت مرهقا للغاية ولا أكاد أقوى على التحرك، ونفدت بعض المؤن الطبية لدينا .. لو استمر الأمر طوال فترة المناوبة بتلك الصورة ستكون العواقب كارثية حقا .. كل ما تمنيه فقط أن لا تقع مزيد من الحوادث تلك الليلة وهو ما تحقق بالفعل ..

ساد صمت بيننا، هتف صديقي:

- رائع ما قمت به .. عملت بكد حقا، وبذلت جهدا غير عادي ..

هز الرجل رأسه، تنهد قائلا:

- ربما عملت بكد بالفعل، لكن بغباء أيضا .. للأسف تلك هي الحقيقة التي لم أكتشفها إلا متأخرا .. بعد منتصف الليل بقليل توجهت لسائق الشاحنة رغم إرهاقي للاطمئنان على حالته، لم أسلم من ثرثرته، تركته تلك المرة يحكي دون توقف ولم أنتبه كثيرا لكلامه، ظل يسرد تفاصيل الحادث وأنا أباشر عملي وأتابع فحصه، ليستوقفني ما قاله على الفور .. توجهت سريعا لسائق سيارة الإسعاف فألقيت عليه بعض الأسئلة، لتتضح أمامي الصورة الكاملة، وأكتشف وقتها كم كنت أحمقا ..

أدركت على الفور الخطأ الذي قمت به .. المصاب الأول كان يقود شاحنة نقل، غفا كما يبدو ولم ينتبه عند اقترابه من أحدى المطبات الصناعية إلا بعد فوات الأوان، سيطر على الشاحنة بصعوبة، لكن اصطدام رأسه بالمقود وشعوره بدوار دفعه للتوقف بعد عدة دقائق وطلب الإسعاف، بينما تسربت بعض حمولة الشاحنة من الزيوت أثناء ذلك كما اكتشف متأخرا ..

كانت هناك بقعة زيت ضخمة إذن على الطريق تشكل مصيدة قاتلة للسائقين .. لن ينتبه أي سائق لبقعة الزيت بسبب تساقط الأمطار وعدم وجود إنارة كافية على الطريق مما يجعل الأمر أكثر خطورة .. من حسن الحظ رغم ذلك أن المطر الغزير قلل من عدد المسافرين المعتاد، وأجبر معظم السائقين ليلتها على تقليل السرعة، وبالتالي تفادي الانزلاق بسبب بقعة الزيت .. لكن السيارات التي كانت تمضي بسرعة كبيرة رغم المطر والظلام

تتعرض لاختلال توازنها على الفور .. البعض يتمكن من السيطرة على سيارته بصعوبة، أو تحيد السيارة خارج الطريق فتوقف الرمال اندفاع السيارة بعد تحولها إلى طين بسبب المطر، بينما لا يتمكن بعض السائقين من التصرف فتنحرف السيارة بشدة لتصطدم بأحد حواجز الطريق أو تنقلب به كما حدث مع العائلة ..

كنت أحمقا ودفع البعض ثمن ذلك .. لو أدركت السبب من البداية، لما وقعت كل تلك الحوادث اللاحقة .. كان علي أن أتصرف سريعا وقتها، لو أبلغت الشرطة فسيمر وقت طويل قبل أن تصل إلى مكان الحادث، فلا توجد نقطة شرطة قريبة، وربما لن يقوموا بشئ على الإطلاق قبل الصباح، أعلم بحكم الخبرة مدى إهمالهم .. ولو تغاضيت عن الأمر لن أسلم من لوم الضمير، وستتواصل الحوادث طوال الليل، والوحدة ينقصها بالفعل أكياس الدم وبعض المستلزمات الطبية .. لم يكن هناك حل آخر .. قررت التوجه بسيارة الإسعاف إلى هناك على الفور .. قمت بوضع بعض اللوحات الفسفورية على طول الطريق لتحذير السائقين .. تعرضت للبرد بسبب قضاء قرابة ساعتين في الطقس السئ، لكننا لم نستقبل أي حوادث أخرى بعدها حتى الصباح .. وبعدها بعدة أيام، تفاجئت باستدعائي من وزارة الصحة ..

- من المؤكد لتكريمك بعد كل ما قمت به تلك الليلة من جهد غير طبيعي .. وإنقاذك لحياة كثير من الناس

- لا .. بل لعقابي .. اتصل مندوب من المركز الرئيس تلك الليلة ليبلغني بصعوبة توفير طبيب آخر بعد أن اتصلت بالمركز قبلها وطلبت ذلك كما تتذكرون، أخبرته الممرضة أني غادرت الوحدة،

فقرر الإبلاغ فورا عن الأمر .. تم تحويلي للتحقيق بشكل عاجل بتهمة الإهمال، ثم توقيع عقوبة بخصم جزء كبير من راتبي لأني تركت مكان عملي ولم أتواجد بالوحدة كما ينبغي أن أكون، خاصة مع حالة الطقس السئ يومها وزيادة الحوادث وغياب زميلي .. وإلى الآن ورغم مرور سنوات ما زالت أعاني من آثار تلك الليلة بعد أن تعطلت ترقيتي كثيرا لما قمت به ..

هل تدرك الآن لما قلت أن العمل بذكاء أكثر أهمية بكثير من العمل بكد وإخلاص

توصية

لم نجد مكان داخل المطعم إلا بصعوبة .. وتأخر النادل في إحضار الطعام على غير العادة .. كنت في مهمة لتحصيل بعض الفواتير للشركة التي أعمل بها، عندما قابلت زميلي الذي يعمل كمندوب مبيعات .. قررنا تناول الغذاء معا .. اخترت المطعم هنا، لكني لم أكن أعلم أنه بذلك الازدحام، تطلعت لساعتي بقلق؛ ما زال علي إصلاح سيارتي والعودة للشركة لتسليم النقود التي قمت بتحصيلها .. تنهدت قائلا:

- لن تصدق كيف كان حال ذلك المطعم قبل عدة أشهر فقط .. اكتشفته وقتها بالمصادفة عندما جئت لتحصيل بعض الفواتير الشهرية في المنطقة هنا .. لم يكن قد اشتهر بعد فكنت أختار الطاولة التي تعجبني، عادة بجوار النافذة حيث أحب التطلع إلى الطريق والمارة .. لا أنكر أن المكان أعجبني على الفور؛ الخدمة ممتازة، والطعام أكثر من رائع، مع حرصهم على نظافة المكان باستمرار .. من النادر أن تجد حمام مطعم بتلك النظافة .. كما أن أسعارهم معقولة، ويقدمون مشروب مع كل وجبة بالمجان .. حكيت لعملائي هنا عن المطعم بحماس، هكذا تشتهر تلك الأماكن .. تتعامل مع مكان فيعجبك ما يقدمه، لتبدأ بتزكيته للآخرين، والذي يقومون بدورهم بالأمر ذاته بعد التجربة، ليكتسب المكان شهرته مع مرور الوقت .. كنت أقدم للمحل دعاية مجانية في الواقع دون مقابل .. قمت بمدح المكان كثيرا لحماقتي، بل كنت اصطحب أصدقائي إلى هنا من وقت لآخر عندما نخرج للتنزه

سويا، ليبدأوا بدورهم بوصف جودة الخدمة التي يقدمها للآخرين .. كل شهر أزور المنطقة لتحصيل الفواتير فأجد المطعم أكثر ازدحاما .. نال شهرة كبيرة بالفعل في وقت محدود .. والنادل الذي كان يعرفني بالاسم ويستقبلني بالترحاب ويلبي طلباتي سريعا، لا يكاد يتذكرني الآن بسبب كثرة الزبائن، وها هو الطعام يتأخر عن المعتاد .. عندما أفكر في الأمر أجد أنها غلطتي في النهاية .. صدقني .. بمجرد أن يشتهر شخص أو مكان ما بسببنا حتى نكون أول ضحاياه ..

لم تكن تلك المرة الأولى على أي حال، يبدو أن هذا هو حال البلد هنا .. تعاملت من قبل لعدة سنوات مع معلم لمساعدة ابنتي الصغيرة في الرياضيات؛ تلك اللعينة المدللة، والدها محاسب لكنها اعتادت الرسوب دوما في الرياضيات، حتى تعرفت على أستاذ بدوي .. بدأت البنت بالتحسن معه في المادة، تطور مستواها كثيرا فأسعدني ذلك .. في البداية لم يكن عدد الطلاب في الدرس الخصوصي عند الأستاذ بدوي يزيد عن أربعة طلاب، والحصة تستمر أحيانا لأكثر من ساعتين، بل ويتواصل معنا على الفور إذا حدث أي تقصير من البنت، وتتصل به ابنتي في أي وقت إذا واجهت مسألة عويصة فيرد على الفور .. مدحته أمام الجميع، وكذلك فعلت زوجتي، بل أني منحت رقم هاتفه لكل من سألني عن معلم جيد لأبنائه .. قمت بدعاية مجانية له لم يكن يتخيلها، ودفعت الثمن .. في العام التالي زاد عدد الطلاب في كل حصة ليصل إلى ستة طلاب، ومع زيادة شهرته، لم يعد يتصل بنا، ولم أعد بدوري قادر على التواصل معه بسهولة كالسابق للسؤال عن مستوى ابنتي .. قام باستئجار مكان أوسع في العام الذي تلاه، وتضاعف عدد

طلابه تدريجيا، واليوم تجلس ابنتي وسط مجموعة تزيد أحيانا عن عشرين طالب وطالبة، والحصة لا تستمر أكثر من ساعة، وعادت درجاتها في المادة للانخفاض ..

من الحماقة أن نسهم في شهرة الآخرين في البلد هنا، الشهرة مفسدة كما يقولون .. والإنسان بطبعه طماع لا يكتفي بالقليل، ولن يتمكن أحد من خدمة سوى عدد محدود من الناس بكفاءة عالية مهما كانت قدراته، لكن ذلك لن يوقف البعض عن قبول مزيد من العملاء إلى حد التخمة، لتكون المحصلة في النهاية كارثية .. ونحن بغباءنا أو حسن نيتنا نساهم في الأمر .. السباك الذي كان يتقاضى جنيهات بسيطة ليصلح أي عطب في منزلي، وطالما تحدثت عنه بكل خير أمام الناس وقمت بتزكيته لهم، أحاول الاتصال به الآن فلا يرد علي مكالماتي إلا بصعوبة بسبب كثرة زبائنه، ويعدني بالقدوم إلى منزلي لإصلاح المشكلة لكنه لا يتذكر إلا بعدها بيومين أو ثلاث بعد أن أعاود الاتصال به أكثر من مرة .. اللعين طلب مني المرة الماضية مبلغا كبيرا لإصلاح موتور المياه، واضطررت أن أدفع خاصة أني أسكن في الطابق السابع والمياه تصل ضعيفة طوال الوقت .. ولم يمر شهر على إصلاح الموتور، حتى تعطل مرة أخرى .. لم يعد يقوم بعمله بتركيز كالسابق بعد أن زاد عدد زبائنه وبالتالي رغبته في الانتهاء من أي عمل في أسرع وقت ممكن ليلحق بالزبون التالي ..

وبائع اللبن الذي كان يستجديني للشراء منه، ويمنحني كوب إضافي من اللبن من وقت لآخر .. لم يعد يمر علي منزلي يوميا كالسابق بعد أن تضاعف عدد زبائنه، ومعظمهم من أصدقائي

وجيراني الذي استمعوا لنصيحتي وقاموا بالشراء منه .. بل ويرفع سعر اللبن كل فترة أو يقلل الكمية المعتادة ..

كما قلت لك، نسهم في شهرتهم فينقلب الأمر ضدنا .. بل أحيانا لا تجد المنتج أو الخدمة التي اعتدتها بسبب كثرة الزبائن .. صاحب محل البن الذي قام بافتتاحه من عدة أشهر على ناصية شارعنا وكاد أن يغلق بسبب قلة الزبائن، تعرفت عليه واعتدت أن اشتري منه نوعية ممتازة من البن الأثيوبي، نوعية لا تجدها في أي مكان بسهولة .. أمر عليه كل عدة أيام لشراء البن الذي بدأت أدمنه، وعندما أقدم القهوة لضيوفي في البيت أو المكتب فيستحسنوا مذاقها المميز، لا أتردد في الإشارة إلى المحل الذي أشتري منه .. والآن أمر عليه كثيرا فلا أجد البن الذي أعشقه؛ لا يمكنه استيراد سوى كمية محدودة منه، وعدد الزبائن كبير فينفد بسرعة .. وأندم لأني كنت بغبائي أحد أسباب شهرته، وتمر عدة أيام أحيانا دون أن أتذوق طعم قهوتي المفضلة .. هل ترى ما أعنيه .. والأسوأ، قد ينهي عامل ما الخدمة في وقت أقل من المطلوب حتى يتمكن من ترضية أكبر قدر ممكن من عملائه المتزايدين فندفع نحن الثمن في النهاية .. سعيد السمكري الذي ذهبت إليه لدهان باب سيارتي القديمة بعد أن تعرضت لحادث، وتفاجئت بكم كبير من السيارات أمام ورشته بعد أن زادت شهرته، فوجئت به يتصل بي لاستلام السيارة بعدها بيومين فقط بعد أن أنهي العمل بها .. على حد علمي تمر السيارة بعد مراحل عند دهانها؛ صنفرة ومعجون ودهان، وكل مرحلة تستغرق عدة أيام أحيانا، وبخاصة عند استخدام معجون والذي يجب أن يترك لفترة حتى يجف .. آخر مرة دهنت

فيها السيارة عند سعيد نفسه استغرق الأمر أسبوع كامل .. استلمت السيارة على أي حال ولم يكد يمر شهر حتى تآكل الطلاء

بل أن الأمر ذاته يتكرر في الأماكن الكبيرة .. افتتح فرع صغير للبنك الذي أتعامل معه بالقرب من مكان عملي .. لم ينل الفرع شهرة في البداية لموقعه البعيد وقلة من يعرف بمكانه، فكنت أنهي معاملاتي بسهولة .. خاصة أن الفرع الرئيس مزدحم للغاية فتنتظر لساعات لإنهاء أي معاملة مهما كانت بسيطة .. نصحت عملائي المقربين بالتعامل مع الفرع .. ويبدو أن آخرين فعلوا .. آخر زيارة من عدة أيام اضطررت للانتظار أكثر من ثلاث ساعات فقط لإيداع بعض الأموال .. تخيل .. والوضع يزداد سوءا مع ازياد شهرة المكان ..

لهذا لم أعد أمدح عامل أو مكان مهما كان جودة ما يقدمه .. من الحماقة أن نفعل .. بمجرد أن أجد عامل مميز، وعددهم قليل في بلدنا كما تعلم .. أو أعثر على مكان يقدم خدمة جيدة أخيرا، حتى أتجنب مدحه للآخرين .. وإذا سألني أحد عن رأيي به، أنتقده بشدة وأحاول أن أثنيهم عن التعامل معه .. لا أقصد ضررا بالطبع، ولكن للضرورة أحكام، والشهرة مفسدة كما قلت لك .. وأنصحك أن تفعل ذلك أيضا .. خاصة مع انتشار الغش وقلة الضمير، وصعوبة العثور على عامل أو مكان يقدم خدمة مميزة تلك الأيام ..

استمع زميلي لكلامي بصبر .. هز رأسه قائلا: معك حق ..

جاء النادل بالطعام أخيرا والذي لم يكن جيدا كالمعتاد، أنهيت الطعام فغسلت يدي في الحمام الذي لاحظت أنه متسخ للغاية ..

غادرنا المطعم، تطلعت لساعتي، تأخر الوقت .. صافحت زميلي قائلا:

- مضطر أن أتركك الآن .. على الذهاب لإصلاح سيارتي ثم العودة للشركة سريعا .. هل تعرف ميكانيكي جيد بالمناسبة، سمعت عن عادل الميكانيكي بالقرب من مكان عملك، نصحني به أحدهم

هز زميلي رأسه قائلا: تعاملت معه من قبل .. لا أنصحك به .. عادل غشاش .. يسرق قطع الغيار الأصلية للسيارة ويبدلها بأخرى مغشوشة .. ثم يعود العطل بعدها بفترة .. من الأفضل أن تبحث عن آخر غيره ..

صافحته ونحن نغادر، راقبت زميلي وهو يبتعد، توقفت خارج المطعم لبرهة أفكر .. كنت أنوي الذهاب لعادل الميكانيكي .. هل هو غشاش بالفعل، عانيت بسبب ذلك من قبل ولا أريد تكرار الأمر، والسيارة جديدة وتغري بالتأكيد أي ميكانيكي غشاش لسرقتها .. تسمرت في مكاني في حيرة وأنا ألقي نظرة أخيرة على زميلي .. اللعنة .. لا أعلم إن كان يقول ذلك لأن الميكانيكي غشاش حقا، أم أنه يحاول فقط أن يجعله يبدو سئ ليبعدني عنه بعد أن استمع جيدا لنصيحتي .. لن يمكنني أبدا أن أعرف

الجميلة جدا والوحش

لم يحلم سوى أن تكون زوجته جميلة ..

عندما أعلن لأول مرة نيته الزواج بعد أن نجح في تزويج آخر شقيقاته، سألوه عن مواصفات الفتاة التي يحلم بها .. تردد طويلاً، أطول من اللازم، قبل أن يبوح أخيراً برغبته في الزواج بامرأة جميلة .. لم يرى وقتها نظرات السخرية والاستهزاء التي ارتسمت بوضوح على وجوه كل من سمعه، أو لعله أدركها فتجاهلها كالعادة .. لم يكن غريباً على أى حال أن يقابل طلبه بالاستهزاء من الجميع؛ ربما لأنه حرم من صفة الجمال .. أنفه الأفطس وجبهته العريضة وشفتاه الغليظتان مع شعر مجعد لم يفلح يوماً في تهذيبه، إضافة إلى عينان ضيقتان يعلوهما حاجبين كثيفين يلتقيان في خط واحد شبه مستقيم، كل ذلك أكسبه سمعة مميزة بين الناس، ومنظراً منفراً لمن يراه للمرة الأولى ولم يعتاد هيئته .. سمات اكتسبها بالتأكيد من عائلته التي اتسمت بالدمامة وإن كان أقلهم حظاً من الجمال .. وربما ألقت سنوات الشقاء والعمل المبكر من صغره ببصمتها القاسية عليه مما ساعد على صقل تلك الملامح أكثر .. لم يتراجع عن رغبته التي أعلنها، ولم يلتفت لنظرات الدهشة والاستنكار التي قابلته عندما أصر على رأيه .. لم يكن ليفهمه أحد على أى حال .. من أقدر منه على إدراك قيمة الجمال، وتقدير أهمية تلك الصفة حقا التي طالما حرم منها .. من أحرص منه على فهم أسرار النعمة التي استشعر دوماً بالنقص أمام الناس لحرمانه من امتلاكها .. ورغم صفاته الجيدة التي لا ينكرها كل من تعامل

معه يوماً، إلا أنها لم تعوضه عن نظرات الناس الخاصة، أو تحميه من تندرهم السافر أحياناً .. رحلة معاناته بدأت مبكرا، ربما من طفولته وبداية اختلاطه بالناس .. من صغره تعرض دوماً للسخرية بسبب شكله ووجهه الدميم، بل كثيراً ما تحول إلى مادة ساخنة للنكات في أي اجتماع مع أصدقائه، حتى أنه اعتاد أخيراً أن يشاركهم السخرية والتندر من نفسه، وبقسوة أشد من قسوتهم .. لم يدرك إلا من تعامل معه فقط أن الجمال النادر يقبع بداخله حقا .. لكنها ميزة لم تمنحه الأمان كثيراً من حصار ألسن الناس وأعينهم

لم تكن تؤرقه مشكلة الدمامة تلك كثيراً من قبل، بل ربما أكسبته دافعاً إضافياً للاجتهاد والعمل .. لعلها الرغبة المحمومة أن يكون الأفضل حتى يتناسى الناس عيبه الظاهر غير القابل للإخفاء ولو قليلاً .. سعى للنجاح بكل قوة طوال عمره ولم يدخر جهداً في سبيل تحقيق أحلامه .. بدأ في تجارة أبيه من صغره، ونجح أن ينتشلها من دوامة الإفلاس عقب وفاة أبيه المبكرة .. لم يصيبه اليأس رغم تقلبات السوق القاسية أحياناً .. ولم يتأثر بعالم التجارة المعروف أن المال يسحر كل من بداخله، حافظ على نقاء قلبه وسريرته وسط عالم تحكمه المادة ومعادلاتها القاسية .. بعد سنوات طويلة من الشقاء دفع أخيراً بتجارته لتستقر على أرض صلبة، ونجح في أن يصنع له اسماً في السوق أشد وقعاً من رنين المال .. لم يرغب بالزواج إلا بعد أن يطمئن على مصير أخوته، وعندما احتفل أخيراً بزفاف آخر شقيقاته .. بدأ يراوده الحلم القديم .. كان قد تخطى الثلاثين بعامين وغزا الشيب شعره مبكراً فأكسبه عمراً إضافياً .. من يرى عبد الهادي يظن أنه تجاوز الأربعين بعدة سنوات .. ورغم منظره المنفر وهيئته الغريبة، لكن سمعته

الطيبة دفعت الكثيرين للترحيب به صهراً .. كما أن تجارته وأطيانه التي تزايدت في القرية أكسبته ثقلاً إضافياً في أعين الناس، وعززت من مكانته كعريس محتمل ..

لم يكن ليتوقع أحد إذن أن يصر عبدالهادي على أن تكون زوجته جميلة، مقدماً ذلك على أي صفات أخرى .. هو نفسه لم يكشف أسباب اختياره، حتى للمقربين منه .. لم يكن يتطلع لزوجة جميلة تشاركه الحياة فقط، بل الأهم حقا؛ بأطفال لا يرثون صفة الدمامة منه .. ربما كان ذلك الدافع الأكثر إلحاحاً لإصراره على الاقتران بامرأة جميلة، والذي لم يشأ أن يبح به لأحد .. ما زالت ذاكرته تعج بصور مؤلمة من ماضيه بسبب بدمامته، صور تطفو على السطح من وقت لآخر فتعكر صفو حياته ويشعر بمرارتها في حلقه، ولم تفلح مرور السنوات في محو آثارها، أو يتمكن من التعافي منها .. لا يرغب أن يعاني أبناءه يوماً من أي مما قاساه صغيراً ، ولا يريد أن تتكرر مآساته الخاصة في ذريته .. ربما يرث الأبناء صفة الجمال من أمهم فلا يلحق بهم ما لحق به من أذى يصعب مداواته، أو التعايش معه لاحقاً .. توقع البعض أن يتجه لمصاهرة أحد العائلات الغنية طمعاً في أن تزدهر تجارته أكثر، أو ربما أحد العائلات الكبيرة ذات الصيت والثقل لعله يكتسب شرف مصاهرتها، لن يعدم أن يجد عروس على أي حال من تلك العائلات رغم دمامته المعروفة، ولكن أن يصر على اختيار زوجة جميلة فقط، دون الاهتمام بأي صفات أخرى، ذلك هو ما أثار دهشتهم ..

لم يأخذ أحد كلامه على محمل الجدية على أي حال، خاصة بعد مرور أشهر دون أن يعثر على الفتاة المنشودة .. حتى أفاقت

القرية على أخبار خطبة عبد الهادي لعزيزة .. وقتها اتسعت دائرة الدهشة لتضرب القرية بقوة، حتى لم يعد يتصدر المجالس سوى حديث تلك الزيجة .. هل يتزوج عبد الهادي بعزيزة فعلاً؟ اقتران اسم كل منهما بالآخر وحده يعد ضرباً من الخيال، وخبراً يصعب على أذهان أهل القرية تصديقه أو التسليم بصحته بسهولة

من في القرية لم يتمنى الاقتران بعزيزة .. منذ وعت عزيزة على الدنيا والعيون تترصدها .. صحيح أنها فتاة فقيرة تنحدر من أسرة شبه معدمة، لكن عائلتها من كبار عائلات القرية .. خالها الأكبر هو عمدة القرية، ولها العديد من الأقارب الأثرياء، ولا يعيبها أنها تنحدر من الفرع الأفقر في العائلة .. والدها فشل في التجارة فاكتفى بتعليمه الديني البسيط ليعين كأمام مسجد القرية القديم بعد عدة وساطات من عائلته .. راتبه الهزيل لا يكاد يكفيه لكنه أجاد تعليم أبناءه .. عزيزة أكبر بناته، ذكية ومجتهدة ومتفوقة في دراستها الجامعية، لكن ليست تلك بأفضل ميزاتها .. من رأى عزيزة يقسم أنه لم يشاهد حسنا يضاهي حسنها .. يكفي أن يراها شخص لمرة واحدة فقط حتى تحل ضيفاً شبه دائم على خياله ولا تبارح أفضل أحلامه .. الغريب أن كل عريس تقدم إليها قوبل بالرفض، ولأسباب مختلفة، مما دفع البعض لعدم تكرار المحاولة .. كما أن اسمها اقترن كثيراً بسعد البكري؛ الطالب الذي يدرس معها في نفس الجامعة، وأكثر شباب القرية ذكاءاً ووسامة، والذي يتوقع له الجميع مستقبل مبهر .. فما الذي دفع عزيزة لاتخاذ تلك الخطوة المفاجئة والاقتران بعبد الهادي خاصة أنه يكبرها بخمسة عشر عاماً على الأقل ..

بدا الأمر خارج عن المنطق لدى أهالي القرية .. ربما جنت أو أصابتها لوثة ما، أو دفعها أهلها لتلك الزيجة لسبب غير معلوم .. هكذا تناقلت الألسن .. وعزيزة تعاملت مع عبد الهادي بالفعل من قبل .. فوالدها صديقاً لعبد الهادي، بل وشريكاً له في بعض تجارته .. ولولا الأرباح التي يجنيها عبد الهادي من تجارتهما المشتركة ويؤديها له بانتظام لعجز والد عزيزة عن الإنفاق على أسرته كبيرة العدد .. وكثيراً ما تردد عبد الهادي على منزل عزيزة، وربما حدث نوع من الألفة معه فلم تعد تأبه لشكله أو تنزعج منه .. هكذا فسر البعض .. وربما طمعت في أمواله .. لكن يشكك البعض في ذلك خاصة أنها رفضت العديد من شباب القرية الأثرياء من قبل .. لا أحد يعلم .. يقول بعض الخبثاء أن عبد الهادي هو من كان يتولى الإنفاق على أبيها وأسرتها، وموضوع الشراكة لم يكن إلا ستار للعطف عليه .. وعبد الهادي بالفعل يعول عدد من الأسر الفقيرة في قريتنا وما أكثرها، وربما تزوجته عطفا أو رغبة في رد الجميل .. لكن أحد تلك التكهنات لم يلق القناعة بشكل مرجح لدى أهل القرية، وظل البحث مستمرا بينهم بحماس لا يفتر عن الدافع الحقيقي

تمت إجراءات الزفاف بأسرع من المتوقع .. وكان حفل زفافهما أسطورياً .. لم يتخلف بيت من بيوت القرية عن الحضور للحفل الكبير .. ربما رغبة في مشاهدة أحد أعاجيب القرية التي قد لا تتكرر مرة أخرى .. ولم يخفي بعض شباب القرية حسرتهم بل وسخطهم وهم يشهدون عبد الهادي بدمامته المعروفة يزف بجوار عزيزة، وقد زادها فستان الفرح تلك الليلة رونقاً وجمالاً .. حتى أن بعض شباب القرية المثقف تحدث بسخرية عن الفرح كتجسيد حي

شديد الواقعية والتماثل لأسطورة "الجميلة والوحش" الخيالية الشهيرة .. بل أن أحد شباب القرية التقط صور للفرح نشرها على مواقع التواصل الاجتماعى لتحصد آلاف التعليقات معظمها ساخر فور نشرها ..

مر شهرين، ولا جديد سوى الحديث عن تلك الزيجة .. ثم سنة كاملة .. ولم يفشل الزواج أو يتصدع سريعاً كما أيقن البعض .. وقل اهتمام الناس بمتابعة أخبارهما بشغف شديد كالسابق .. وبدأت عزيزة تعاود دراستها الجامعية .. لتنطلق الحكايات مرة أخرى بعد فترة سبات طويلة، وبنشاط أشد .. بعض أهالي القرية شاهدوا عزيزة وسعد وهما يتبادلان الحديث في المحطة، بل أقسم أحدهم أنه رآه وهو يمسك يدها .. انتشرت الأقاويل عنهماً سريعاً .. ربما كان يتقابلان بالجامعة، أو خارجها بعيداً عن الأعين .. كما أنها بدأت تكثر من زيارة أختها المتزوجة على غير العادة، حيث دارها الملاصق لدار سعد، وتذرعت بحاجة أختها إلى رعاية خاصة بسبب حملها وسفر زوجها للخارج .. ورغم عدم وجود دليل يؤكد صحة أي من تلك الأقاويل، لكنها تناثرت بسرعة على الألسن، وشطح الخيال بالبعض ليرسم سيناريوهات أشد براعة وإحكاماً .. عزيزة استدرجت عبد الهادي الساذج لتخفي علاقتها بسعد الفقير، وعبدالهادي مشغول بعمله طوال النهار على أي حال حيث تستحوذ تجارته على جل اهتمامه، بل أن ظروف عمله تجبره على قضاء بعض الليال في المدينة من وقت لآخر .. كما أنها لن تجد أفضل منه لاستغلاله، بل واستنزافه مالياً دون صعوبة .. والذهب الذي ترتديه، وإغداقه في الإنفاق على أسرتها كبيرة العدد وببذخ واضح، تبدو كمؤشرات لا تخطئها الأعين توحي بنجاحها التام في

الوصول إلى غايتها .. وزادت حدة الشائعات بعد أن تناقلت الألسن بدهشة تنازل عبد الهادي عن قطعة أرض كبيرة اشتراها في القرية مؤخراً لزوجته، وتم التأكد من صحة الخبر بعدها بأيام قلائل فقط من مسعد كاتب المحامي والذي كان أحد الشهود على العقد ..

وكان لا بد أن تصل تلك الشائعات لعبد الهادي، قابلها بالدهشة الشديدة في البداية .. يدرك مدى الصدمة التي سببها زواجه بعزيزة، لكنه لم يتوقع أن تصل الأمور للنيل من شرفه .. لم يكن أحمق رغم ذلك لينساق وراء شائعات سخيفة كتلك أو يحاول التحري عن مصدرها .. حاول تجاهلها في البداية لكنه فشل بعد أن ازدادت فحاصرته .. طلب منها أن تمتنع عن الذهاب لجامعتها درءاً لتلك الأقاويل لكنها رفضت، خاصة أنها اشترطت عليه قبل الزواج أن تكمل دراستها .. رفضها الشديد والحاسم فور طرحه للموضوع دفعه للشك فيها للمرة الأولى .. بل وصل الأمر بعد عدة أيام لخلاف حاد بينهما تركت على أثره المنزل في سابقة لم تحدث منذ زواجهما .. وعندما ثاب عبد الهادي لرشده سريعاً وقرر مصالحتها، ابتاع هدية قيمة قبل أن يتوجه لمنزل والدها بصحبة والدته، لكنه علم أنها فضلت الإقامة عند أختها المتزوجة، حيث تستشعر راحة أكبر هناك كما زعمت، رغم تحذيره لها من القيام بذلك ..

واستشاط عبد الهادي غضباً، وبدأ عقله يسترجع كل كلمة سمعها .. ورغم ما يعتمل بداخله من ثورة لكنه نجح في كبح جماح نفسه بصعوبة .. عادت عزيزة للمنزل في اليوم التالي، لكن التوتر شاب علاقتهما .. واتسعت هوة الخلافات بينهما سريعاً؛ فلم يعد ينام معها

في حجرتهما كما كان الأمر من قبل، بل يفترش الأرض في الصالة الكبيرة رغم آلام الظهر التي تهاجمه .. وعندما حاولت مصالحته بعد عدة أيام من الجفاء، مستغلة الفرصة لتزف إليه خبر حملها، والذي تدرك جيداً أنه ينتظره بلهفة شديدة، تلقى الخبر ذاهلاً دون أى انفعال ..

طفله الأول الذي يحلم به في الطريق .. تملكه الفرح لثوان، ثم القلق والوجوم سريعاً بعد أن لاحقه خاطر ما فجأة فأزعجه .. خاطر تسلل إلى عقله بخبث لم يستطع أن يتخلص منه ..هل هو طفله حقاً؟ .. لم يقع الحمل طوال الأشهر الأولى من الزواج التي قضى معظمها داخل القرية جوار زوجته .. والآن يقع فجأة بعد أن بدأ يسافر كثيراً للمدينة بسبب تجارته، بل وتجبره الظروف على المبيت هناك من وقت لآخر .. عام كامل مر على زواجهما لم تظهر فيه أي بوادر للحمل حتى فكر في زيارة طبيب ،والآن يحدث بعد أن بدأت تعاود دراستها .. داهمته الشكوك كتيار جارف يصعب مقاومته .. فقد قدرته على التفكير السليم منذ بدأت تلك الشائعات اللعينة تطارده فلم يعد بقادر على التمييز بين الحقيقة والكذب .. لأول مرة في حياته يستشعر العجز أمام أمر ما، وتلك المرة الأمر يمس كرامته .. منذ تلقيه الخبر حاول كثيرا تجاهل تلك الشكوك التي تكاد تقوده لحافة الجنون دون أن يفلح، وبات سؤال ملح يراود عقله طوال الوقت ولا يكاد يرحمه .. هل ما يتناقله الناس صحيح .. هل يخفي أهل القرية بالفعل شيئاً لا يعمله .. حاول أن يصمد، لكن ما زاد من معاناته نظرات السخرية التي بات يراها موخراً دون مواراة على وجوة البعض بعد انتشار خبر حملها، تلك النظرات الخاصة التي فشل في التعامل معها أو

تجاهلها .. تحمل طويلاً نظرات السخرية مسبقاً من دمامته حتى بات يألفها، ولكن كيف له أن يألف نظرات كتلك تنتقص من كرامته ..

هل تخونه بالفعل .. كل مرة يتطلع إلى وجهها شديد البراءة والصدق يستشعر حجم خطأه، بل ربما انتابه شعور بالندم على ما يعتمل في نفسه .. لكن كلام الناس لا يرحمه، ولا يدع له فرصة للتفكير الصائب .. أعماه الغضب يوماً عندما أدعت فقدان خاتم ثمين أهداه لها .. زعمت أن الخاتم ضاق على أصبعها بعد زيادة وزنها بسبب الحمل، فاحتفظت به في حقيبتها لكنه ضاع منها لاحقاً .. تولاه غضب أعمى فلم يصدق روايتها الواهية .. استرجع كل ما سمعه .. كلام الناس صحيح كما يبدو؛ تصرف على عشيقها من نقوده، وسعد تحسنت أحواله المادية مؤخرا، حتى أنه تخلص من معظم ديونه الصغيرة، بل وجدد بناء منزله .. لذلك كانت تطلب منه كثير من المال منذ زواجهما، ظن في البداية أنها تود مساعدة أسرتها كبيرة العدد لهذا لم يسألها يوماً عن سبب حاجتها لكل ذلك المال .. بدأ يومها يلوم نفسه؛ كيف كان ساذجاً ليثق بها إلى تلك الدرجة، وغفل عن مراقبة سلوكها من قبل .. وما زاد من حدة هواجسه رسوبها ذلك العام الجامعي، في سابقة لم تحدث من قبل .. لتدعي أن فشلها نتيجة طبيعية لمتاعب الزواج والحمل، بالإضافة إلى التزامها برعاية أمه المريضة والاهتمام بشؤون المنزل .. وهي الحجج التي رآها واهية، فلم تلق لديه قناعة كافية .. وعززت الشائعات المنتشرة عن تلك اللقاءات المحرمة بينها وبين سعد في الجامعة، والتي بسببها أهملت دراستها

مع الأيام تضخمت هواجسه .. بات يرى زوجته من منظور آخر لم يعتاده .. لم تعد جميلة كالسابق .. فقدت فتنتها فجأة أمام عينيه فلم يعد يبصر جمالها، ذلك الجمال الذي خدعه، واتخذته قناع متقن تخفي وراءه عهرها .. فقد ثقته بنفسه تدريجياً مع كثرة الأسئلة التي تدور في رأسه دون إجابة .. ساءت حالته بمرور الوقت، بدأ يلوم نفسه وبقسوة أكبر على اندفاعه في علاقة كان يدرك من البداية عدم تكافؤها .. زادت متاعبه كلما تقدم بها الحمل، اضطربت أحواله فلم يبال .. تمر عليه أيام يفقد فيها حماسه للعمل، فيوكل لبعض مساعديه الاهتمام بشئون تجارته، ثم يعود فيغرق نفسه تماماً في العمل لعله ينسى ما يمر به، أو يسافر للمدينة لعدة أيام بعيداً عن كل ما يدور في القرية .. زادت تصرفاته العصبية غير المفهومة .. حطم في أحد الأيام مرآة في المنزل بعد أن أطال التحديق فيها .. لم يخبر أحد أنه وجد نفسه يحطمها دون وعى بعد أن مر سؤال شديد الخبث بعقله وهو يطالع صورته المنعكسة في المرآه وقتها؛ كيف يمكن لفتاة جميلة حقا مثل عزيزة أن ترضى بالوجه الذي يطالعه أمامه في تلك اللحظة ..

مرت الأسابيع سريعاً، وهوة الخلاف تتفاقم بينهما يوماً عن يوم .. لم يعد يحادثها كالمعتاد .. غريبان يعيشان تحت سقف واحد، تفصل بينهما هوة من الصعب تجاوزها .. حتى عندما واجهت آلام مفاجئة في أحد الليال لم يهرع للطبيب بهلع كعادته، أو يتلهف للاطمئنان عليها كما كان يفعل من قبل .. بل أنه لم يبد أي قلق أو خوف على صحة الجنين الذي تحمله، وهو ما أثار استغرابها بشدة، وساعد على زيادة فجوة الخلافات بينهما

عاد يوماً من سفره مرهقاً ليتفاجئ بوالدته المسنة تهرع إليه بنشاط كبير رغم سنوات عمرها السبعين والمرض الذي يثقل كاهلها، لتفضي إليه بحماس بأن زوجته على وشك الولادة .. تولاه الذهول للحظات، ثم الصدمة والوجوم سريعاً .. كيف مرت الأيام سريعا وهو غافل تماماً عن حسابها بتلك الصورة، وكيف غفل الطبيب اللعين هو الآخر عن إدراك أنها ستلد بعد سبعة أشهر فقط .. طلبت منه والدته سرعة اصطحابها إلى المستشفى ولكنه اكتفى بالاتصال بالطبيب وسط دهشتها .. وبينما ينتظر قدوم الطبيب، انتابه إحساس مفاجئ بالضيق لم يستطع التعامل معه .. انطلق خارج الدار متجهماً، انزوى بعيداً يحاول استجماع أفكاره فلم يفلح، أطرق برأسه تثقله هموم أكبر من قدرته على تحملها .. شعر بخدر يتسلل إلى جسده تدريجيا، وهن غريب يصيب أطرافه فاستسلم له .. وكأن جسده أصابه عطب ما فلم تفلح صرخات زوجته التي تصل بوضوح لمسامعه بالخارج أن تدفعه للاطمئنان عليها، أو التحرك لنجدتها ..

وصل الطبيب متأخراً .. لم يعد يهمه الآن أن تنجب زوجته، أو يشغله الاهتمام بالسؤال عن صحتها .. طعم المرارة يتزايد في حلقه .. ابتسم بسخرية رغم ذلك .. من عدة أشهر فقط كان ينزعج، بل ويتملكه الهلع عندما تمر زوجته بوعكة بسيطة، والآن لم يعد يحفل بمصيرها، بل يتمنى موتها .. أغمض عينيه في ألم .. لم يتعرض يوماً للخداع رغم طول سنوات عمله كتاجر في السوق، فكيف لفتاة حمقاء مثلها أن تخدعه بتلك الصورة .. صداع رهيب يجتاحه في تلك اللحظة .. ومع صرخات زوجته، غلت الدماء أكثر في عروقه .. تمنى لو يضع الموت حداً لعذابه وخيانتها .. وضع

يديه على أذنه بقوة يحاول أن يبعد صوت معاناتها الذي يصل بوضوح إليه في الخارج، وكل ما يتمناه الآن فقط أن تسكت للأبد ..

مع مرور الساعات تحول منزله إلى ما يشبه ثكنة عسكرية؛ أوامر وطلبات و صرخات، وأصوات أقدام تهرول مسرعة لتلبية مطلب عاجل من حين لآخر، والدار بدأت تعج بالنسوة، جئن فور تلقيهن الخبر للمساعدة .. لم يعد يشغله أى مما يدور حوله، لديه ما يكفي من الهموم للتعامل معها .. كاد الليل أن ينتصف دون أي جديد، خاصة بعد تعثر ولادتها كما أطلعه الطبيب دون أن يبال .. غرق تماماً في تيار أفكاره فلم يشعر بأي مما يدور حوله، بدأ يسترجع دون وعي كل صور حياته، ورغم كل ما تمتلئ به من مآسى، لكنه بات يدرك أن اللحظة الراهنة هي الأشد وطأة، وأن ذلك الشعور بالمهانة والعجز الذي يغلف حياته في تلك اللحظة لم يختبره بذلك الثقل من قبل، وتتضاءل مقابله مرارة كل ذكرى أليمة عانى منها مسبقاً .. تطلع للسماء بصمت، ليته الآن يسترجع حياته البسيطة السابقة بكل منغصاتها، أو تستجيب لتوسلاته فتضع حداً لمعاناته .. قصة حياته كتبت من البداية كمأساة، ولم يكن لها أن تحظى بترف النهايات السعيدة .. أفاق فجأة على صوت صرخة حادة مميزة انطلقت في المنزل، وتردد صداها بوضوح في الخارج .. صرخة رضيع، يمكنه تمييزها بوضوح .. كاد الجنون يضربه .. لم يستطع التحمل .. نهض بلا وعي .. انطلق هارباً بعيداً عن المكان بأكمله .. قادته قدماه دون تفكير تجاه الساقية القديمة .. وصل المكان فبدأ يشعر قليلا بالراحة .. هنا كان يفترش الأرض وهو طفل صغير كلما ضايقه زملائه وسخروا منه .. عبد الهادي المسخ

.. القرد .. الغوريللا .. هكذا كانوا يطلقون عليه .. هنا اعتاد أن يختفي عن الأنظار كلما زادت حدة السخرية منه كى يجتر آلامه بصمت .. يهرب بعيداً عن حصار أعين الآخرين وسياط ألسنتهم الحادة .. لا أحد يقترب من الساقية المهجورة على أي حال .. يستعيد صفاء ذهنه، يستجمع شتات نفسه، ثم يعود مرة أخرى أكثر قوة .. في تلك المرة لم يدرى كم لبث، لكن عندما بدأت تباريح الصباح تضئ المكان لم يجد بدا من النهوض متثاقلا، أدرك أنه لم يعد بإمكانه المكوث أكثر من ذلك، لن يفيده الهرب على أى حال .. توجه نحو بيته يجر قدميه بصعوبة .. هل يقتل الخائنة الآن .. والمولود .. كيف يتصرف مع ثمرة الخطئية الحية تلك .. لم يكن يتحمل رؤيتها من قبل، فكيف وقد أصبح ثالثهما طفلاً يذكره بخيانتها .. وصل خائر القوى .. هرعت أمه لاستقباله فور أن ميزت وقع أقدامه ..

طعم المرارة يزداد في حلقه .. المنزل تضربه الفوضى، وبعض النسوة ما زلن هناك .. حاول أن ينسحب لغرفته بهدوء، لكن أمه صممت أن يرى زوجته .. لم يعارضها تلك المرة، لا يرغب أن يثير ريبتها أكثر من ذلك .. لم يشأ أن يطلعها على همومه رغم أنه اعتاد أن لا يخفي عنها أي من أسراره القلية الساذجة من قبل، لن تتحمل خاصة مع كبر سنها ومرضها .. لن يكون أنانياً ويقضي عليها بثقل مأساته الخاصة .. تقدم معها دون مقاومة .. توقف عند مدخل غرفة زوجته يتردد في الدخول .. حاول أن يتماسك قليلاً فلم يفلح .. عليه أن يتمالك أعصابه ويحافظ على هدوئه قدر الإمكان، لا يمكنه إثارة فضيحة الآن .. تقدم خطوة لكنه عاد فتراجع دون إرادة، ما زال يخشى حقا من ردة فعله إن رأى زوجته .. ذلك

البركان شديد التأجج بداخله قد يثور في أي لحظة فلا يتمكن من السيطرة على نفسه .. تسمر في مكانه لبرهه عاجزاً عن التفكير، ثم عاد للتقدم ببطء في النهاية، لا جدوى من هروبه على أي حال، وما الداعى للكتمان والقرية كلها تعرف سره بالفعل، ولا يريد أن يلفت الانتباه أكثر بتصرفه بغرابة .. تنحت امرأتان وهو يدخل الغرفة، تقدم للداخل بتثاقل .. زوجته شبة نائمة .. والطفل يتحرك بجانبها ملفوفاً بقماطه الأبيض وكأنه يحاول التخلص منه بلا فائدة .. تقدم أكثر ذاهلاً عما حوله .. وقف قبالة الطفل دون أن ينظر تجاهه .. لم يعد يحتمل .. يستشعر الدماء تندفع حارة إلى عروقه، ورعشة بدأت تسري في أطرافه .. يضم قبضته ويتنفس بصعوبة .. هرعت أمه فحملت الطفل بين يديها برفق عندما لحظت تردده .. رددت بضع كلمات لكنه لم يسمعها .. انتبه إليها وهي تحاول أن تناوله الرضيع .. تطلع لوجهها مهزوماً، لم يعد هناك مجال للتراجع أو الهرب .. تكاد مرارة الموقف تقتله في تلك اللحظة .. تجاوب معها رغم ذلك باستسلام وتخاذل .. وضعت الطفل بين يديه بحرص بالغ فتلقاه بوهن .. قطرات من العرق تنساب على جبهته رغم برودة المكان، والدماء بدأت تندفع إلى عينيه فتصبغ كل شئ باللون الدامى .. وكتلة اللحم الحمراء اللعينة التي تتحرك بين يديه في تلك اللحظة بنشاط غريب تدفع معاناته إلى حدود لم يألفها .. رعشة خفيفة تنتاب جسده لا يمكنه السيطرة عليها .. هل يقتله الآن، يكتم أنفاسه وأنفاسها .. لدقيقة تسمر تماماً في مكانه عاجز عن التصرف، والرعشة تزداد فلا يكاد يسيطر عليها .. طالعته العيون كلها .. انتبه فتمالك نفسه بصعوبة .. ابتلع المرارة التي يشعر بها في حلقه، قبل أن يهبط ببصره ببطء ناحية الطفل .. ولثوان انعقد لسانه .. عجز تماماً أن يتفوه بأي حرف .. كل ما

يتذكره لحظتها فقط أنه وجم .. ثم وجد نفسه يبتسم .. ابتسامة عريضة طفت فجأة على وجهه لم يستطع منعها ..

تغيرت ملامح وجهه سريعا دون وعي وهو يتطلع للمولود بين يديه .. دمعت عيناه وهو ينظر لذلك الأنف الأفطس الصغير وتلك الشفاة الغليظة، والجبهة العريضة التي يعلوها شعر خفيف مجعد .. ضم الطفل على الفور برفق إلى صدره وهو يتنهد بحرارة .. لم يكن جميلاً كما أدعت الداية في الخارج .. لا يهمه ذلك .. لم يكن جميلاً كما تمنى بشدة .. لم يعد يبال .. نظر لزوجته دون كلام .. ابتسم وهو يرفع الصغير بين يديه عاليا .. ولأول مرة يبصر جمالا لم يتخيل يوما أن يراه

الراشي

لا أخجل من الاعتراف أني كنت طوال عمري راشياً، ولما أخجل من الاعتراف من شئ مارسته طوال عمري واستفدت كثيرا منه .. من منا لم يكن راشياً على أي حال

بدأ الأمر منذ كنت صغيراً؛ وقتها أدركت أن كل شخص قابل للرشوة بطريقة أو بأخرى، وأن لكل شخص رشوة محببة إلى نفسه يمكن تقديمها في الوقت المناسب من أجل تحقيق أهدافي في النهاية

ربما ليست رشوة مادية بمعناها المألوف الذي قد يتبادر إلى الأذهان، ولكنها أقرب ما تكون إلى ذلك .. شئ يدخل السعادة على قلب شخص ما فيمنحك على الفور ما تريد، شئ يتمناه بشدة سواء صرح بذلك أم لمح، أو أخفاه طويلا في قلبه .. كل ما عليك هو أن تبحث عن ذلك الشئ .. تعثر عليه بأي وسيلة .. وهو كنت ما أتميز به طوال عمري

بدأ الأمر معي مبكراً، نشأت في أسرة كبيرة العدد نوعا ما، لدي أربعة أشقاء أكبر مني، وجدتي تعيش معنا في المنزل، أو نعيش في منزلها على وجه الأصح .. في أسرة كبيرة كتلك يصعب الحصول على امتيازات خاصة، وعليك أن تستثمر ذكائك للحصول على ما تريده، حتى لو عن طريق الرشوة

جدتي التي تقضي معظم أوقاتها في غرفتها المنعزلة فلا نكاد نراها إلى قليلاً .. اكتشفت أن لها قدرة هائلة على سرد الحكايا والذكريات، والتي قد تستمر أحياناً لساعات دون توقف .. بالطبع

تلك كانت نقطة ضعفها التي تمكنت من استغلالها بسهولة؛ فقدرة هائلة على سرد الحكايا تحتاج بالتأكيد إلى آذان صاغية .. كنت أتسلل إلى غرفة جدتي بحجة الاطمئنان عليها، أفتح النوافذ وأسمح لضوء الشمس أن يغمر المكان، وألبي طلباتها الصغيرة برحابة صدر، ثم أجلس للاستماع إليها بصبر وهي تسرد حكايات وذكريات تبدو بلا نهاية .. أحياناً أفقد قدرتي على تحمل تلك المعاناة، فأذهب إليها قبل موعد درسي الخاص بنصف ساعة، لاعتذر لجدتي بمجرد قدوم المعلمة –ونادرا ما تتأخر تلك اللعينة- في موعدها المعتاد .. وأحيانا حقا أستمتع بما تقوله، وأكتشف أشياء عن أسرتي ربما أستغلها لاحقا .. تعلقت جدتي بي مع مرور الوقت، ولم يكن حينها من الصعب بعد ساعات من الاستماع لأحاديثها أن أطلب منها بعض الطلبات الصغيرة؛ مثل بعض النقود، أو أن تضغط على أبي كي يشتري لي لعبة جديدة أرغب بها حقا، أو يعفيني من العقاب لخطأ ارتكبته .. بل أنها كانت أحياناً تتطوع بذلك من تلقاء نفسها دون أن أطلب منها، لما لا وقد أصبحت مع مرور الوقت حفيدها المفضل

ولأني كنت مشاغباً للغاية مما يرغمهم في كثير من المناسبات على عقابي وحرماني من العديد من الامتيازات، كنت أسعى لتطوير أساليب خاصة لإعادة اكتساب تلك الامتيازات .. وأكثر منها .. بعد تقديم الرشوة المناسبة بالطبع

مع أبي، كان الأمر صعباً في البداية .. حاولت أن أتفوق دراسياً لكن ذلك لم يلفت انتباهه، أو يمنحني أي مزايا اضافية فكل أخوتي - لسوء حظي- من المتفوقين .. ولأن أمي اعتادت أن تشكو له سوء سلوكي أثناء غيابه في العمل خاصة أنه يعمل لفترتين، فكان

يكفي أن أهذب سلوكي عند عودته، أو على الأقل أتظاهر بذلك، كي يدرك أن أمي تبالغ كعادتها ويقلل العقوبة .. اكتشفت أن أبي يعشق كرة القدم، على عكس أخوتي وأمي، حتى أنا لم أكن أعشقها .. لكني حرصت أن أتابع معه مباريات الكرة بحماس شديد، وعندما يغيب في العمل، أحكي له بالتفصيل عن المباريات التي فاتته .. وربما تجاذبنا الحديث لفترات طويلة عن ناديه ولاعبه المفضل .. وقتها يصبح أبي مثل طفل صغير، خاصة أنه كان لاعب كرة ماهر في صغره كما يدعي، وأشك في ذلك، فكان يمنحني بعدها ما أريد دون عناء كبير

مع أمي، تطلب الأمر مجهودا أكبر .. حاولت أن أمتدح طهيها للطعام، مرغما نفسي على الكذب، لكن ذلك لم يكن كافياً .. اكتشفت تدريجيا طرقا أخرى .. كنت أتناول الخضروات التي تطهوها دون اعتراض كما يحدث مع أخوتي، وأذهب للسوق كثيرا لشراء الأغراض التي تحتاجها حتى باتت لا تعتمد على أحد سواي، وعندما جاءت أختي الصغيرة إلى الدنيا، آخر العنقود الذي حرمني للأبد من ذلك اللقب، لم يكن من الصعب إظهار الاهتمام بها ورعايتها كي أكتسب ثقة أمي، خاصة عندما تكون منهمكة في أعمال المنزل، أو الشجار مع أخوتي وهو ما يستهلك معظم وقتها، لذا كان من الطبيعي رغم مشاغباتي أن تمنحني ما أريد دون اعتراض .. ربما كي تتجنب أن تفقد خدماتي، أو خوفا أن أتحول حقا إلى نسخة أخرى تتسم بالإهمال الشديد واللامبالاة مثل أخوتي وأبي

عندما ذهبت للمدرسة للمرة الأولى لم يكن الوضع سهلاً بأي حال كما ظننت، وكما هو الحال في المنزل .. كان علي أن أشحذ ذهني

كي أصل إلى معرفة الرشوة المناسبة التي يمكن تقديمها، والتي تختلف من شخص لآخر بالطبع .. مدرسة الرياضيات لم تكن تحب الطلاب المشاغبين؛ فكنت أنقل إليها أخبارهم وما يدور في الفصل أثناء غيابها، والألقاب التي يطلقها عليها الطلاب، وما أكثرها، ولم يكن غريباً بعدها أن تعدني التلميذ المفضل لديها .. مدرسة الموسيقى التي تلهث وهي تحمل أدوات الموسيقى الضخمة لتنتقل بها بين الفصول، خاصة مع كبر سنها وبدانة جسدها، لم يكن غريباً أن أتطوع لمساعدتها في حمل الأغراض الثقيلة .. معلمة العلوم كانت تفضل الهدايا، لذلك كنت أحرص على جلب بعض الهدايا البسيطة لها، وكنت أقنع والدتي بسهولة بدفع قيمتها، ولم تكن تمانع ما دمت أحقق درجات عالية في العلوم، وربما تبرر الأمر بأن حبي لمعلمة العلوم هو ما يدفعني للقيام بذلك، ويعبر عن شكري لها، ويزيد دافعيتي للتعلم .. أما المدرس الذي لم أكن أستطع رشوته، فكنت أتفوق في مادته .. بوجه عام اكتشفت أن المعلم -أي معلم- يفضل الطالب المجتهد حتى لو كان مشاغباً، بل ويحظى بمكانة خاصة في قلبه، ويمكنه أن يتنازل كثيرا أمامه، خاصة مع زيارات الموجهين المتعددة، والتي يحتاج فيها لكل طالب متفوق كي يبرز مجهوده كمعلم مثالي أمامهم ..

التحدي الأصعب كان اكتساب ثقة زملائي .. ما الرشوة التي يمكن أن تقدمها لطفل مثلك .. لم يكن لدي الكثير من الأشياء الجميلة وأنا صغير لأقدمها، وهو أمر لم يزعجني بأي حال .. مع مرور الوقت يمكنك التعرف على نقطة ضعف أي شخص، فقط راقبه بعمق .. علاء رائد الفصل يحب كرة القدم، مثل كثير من طلاب فصلي الحمقى، لذا توليت حراسة مرمى فريقه، رغم عدم إجادتي للأمر

.. عادة لا يوجد طفل يرغب أن يقف ثابتاً معظم وقت المباراة في نهاية الملعب بينما باقي زملائه يركضون بحرية وحماس في كل أنحاء الملعب، كما أن المجد في كرة القدم لمن يسجل هدفاً لا من يمنعه .. فريق علاء كان يواجه تلك المشكلة كل مرة يقررون لعب كرة القدم، لم يكن أحد منهم يرغب في تولي حراسة المرمى، قبل أن أوفر لهم حلا نهائيا تلك المعضلة، وتدريجياً اكتسبت ثقة بقية اللاعبين، لتمنحني صداقتهم كثير من المزايا .. أشرف جاري يعشق ركوب الدراجات بجنون، لكن دراجته القديمة لم تكن تساعده على الانطلاق بسرعات عالية كما يحب، بينما دراجتي تسمح له بإظهار مهاراته، ربما لهذا صرت صديقه المفضل، وبات يمنحني كثير من الحلوى التي يحصل عليها من والدته بلا حساب .. تعرضت للضرب وأنا أدافع عن علاء ضد بعض الطلاب المتنمرين، دفعت ثمنا غاليا حقا كي أكون أقرب التلاميذ إلى قلبه، لكن هدايا والده الذي يعمل في الخارج ويتنازل لي عن بعضها كانت تعوض الأمر .. التلاميذ الكسالى مثل حامد كنت أساعدهم في حل الواجبات التي يعجزون عن حلها، ليفلتوا من عقاب أكيد .. ومحبي الشغب مثل إبراهيم كنت أجاريهم في الأمر، على الأقل كنت أستمتع بذلك، بل وأفوقهم شغبا في كثير من الأحيان، حتي أني فصلت من المدرسة ذات مرة .. لم يكن غريبا إذن أن أتمتع بشعبية جيدة في المدرسة تتيح لي امتيازات خاصة من وقت لآخر ..

عندما كبرت، منحني العمل مجالاً أوسع لممارسة هوايتي القديمة، هنا تعرفت على أنواع جديدة من الرشوة؛ مباشرة أكثر ولا يخجل صاحبها من اللجوء إليها .. وأدركت أنها طريق شديد الخطورة

حقا يمكن أن يقضي على مستقبلك، أو يدفعك نحو القمة بخطوات أسرع .. ولأني مارست ذلك طوال عمري، لم يكن غريبا أن أتسلق سريعا سلم النجاح

بالطبع صادفت بعض العقبات، هناك من يرفض الرشوة بشكلها التقليدي المعتاد، فكنت أبحث عن رشوة أخرى تناسبه، وفي الوقت نفسه لا تمس كرامته، رشوة تناسب معتقداته الحمقاء ولا يمكن أن يرفضها بأي حال .. مديري الأول كان من تلك النوعية، متحفظ ويراعي ضميره جيدا، لم أنجح معه في أيامي الأولى، حتى واتتني الفرصة المناسبة بعد أن اضطر للعمل لفترة ثانية لتغطية نفقات أسرته المتزايدة، قل تركيزه بعدها في العمل وكثرت أخطائه، استغللت الفرصة جيدا، تعودت أن أقوم بمهامه حتي لا يلحظ أحد غيابه المتكرر، راجعت بنفسي كل ما يقوم به كي أصحح أخطائه المتعددة، وحرصت على إرضاء العملاء الغاضبين منه، تفاجئ بإخلاصي له، اكتسبت ثقته، وتدريجياً لم يعد يرفض اقتراحاتي، ربما خوفاً من خسارة موظف مجتهد لأقصى حد وصديق مخلص يندر وجوده، كانت تلك هي رشوتي، واستطعت بفضلها أن أنال أول ترقية .. قبل أن أفضح أمره في مجلس الإدارة لاحقا لعضو لم أتمكن من رشوته وتصادف أنه يكره مديري ..

عندما وصلت إلى مجلس الإدارة أخيرا، كان علي أن أبحث عن الرشوة المناسبة لكثير من أعضاء المجلس الأقدم والأكثر نفوذا وتأثيراً .. اكتشفت أن الرشوة يمكن أن تكون "خدمة مقابل خدمة"، وبخاصة مع المتشددين منهم .. أحدهم جلبت عقد عمل لابنه في الخارج عن طريق أخي الأكبر الذي لا يكاد يعود لوطننا إلا قليلا، فلم يعد يهاجمني كالسابق .. وآخر اكتشفت عشقه للاسكواش،

وبخاصة أنه بطل سابق في تلك اللعبة، فاشتركت في النادي الذي يتدرب به، واعتدت أن ألعب ضده مباراة حماسية كل فترة، وبالطبع يهزمني فيها رغم كبر سنه ولياقته الضعيفة، لذا لم يكن غريبا أن يدعم أفكاري واقتراحاتي على الدوام خوفا من خسارة صديق يشاركه الشغف الشديد برياضته المفضلة .. أما رئيس مجلس الإدارة، فقد كان من تلك النوعية التي لا تتوقف عن سرد انجازاتها، وشرح عبقريتها للجميع، لذا كنت لسانه الناطق الذي يعدد تلك الانجازات الوهمية في كل مناسبة، ويخلق منه شخصية أقرب للأساطير منها للواقع، لكني رغم ذلك لم أحصل على مكانة خاصة لديه لكثرة منافقيه، حتى رتبت له لاحقاً لقاء تلفزيوني ظل مصدر فخره لفترة طويلة، بعد أن رشوت مخرج تلفزيوني أعرفه، لأحقق هدفي وأنال ثقة مديري بعدها، وأنجح في الحفاظ على تلك المكانة لاحقاً

لكن ذلك لم يؤثر على حياتي الخاصة، تزوجت من فترة طويلة وأعشق حياتي الأسرية، وحتى لا أنسى، زوجتى هي ابنة أحد أعضاء مجلس الإدارة ذوي النفوذ ممن فشلت في التوصل إلى الرشوة المناسبة لهم، لكني أحبها حقا، وزاد عشقي لها مع مرور الأيام، خاصة بعد أنجبنا ابننا الوحيد الذي بات محور حياتي

يومياً أعود من عملي متأخراً، فيسارع الصغير إلى أحضاني، ببراءته المعهودة، فأنسى معه متاعب العمل وأطرح عن نفسي كل همومها

اليوم رفض تناول الخضروات، مما أغضب أمه بشدة، تدخلت كالعادة لإقناعه فلبى طلبي دون جدال كبير وسط دهشة والدته ..

وفي المساء حرص أن يشاهد معي مسلسلي المفضل رغم أني أعلم أنه يتحرق شوقا لمشاهدة الكارتون المحبب لديه والذي يعرض في نفس التوقيت .. بل وحرص أن يشاركني لعبتي الالكترونية المفضلة التي أهزمه فيها بسهولة رغم مهارته الشديدة التي لا تظهر كما يبدو إلا مع الآخرين

زوجتي تقول أني أتساهل معه كثيرا، ربما تكون محقة في ذلك .. لكني أعلم أنه يحبني ويتعلق بي، لهذا يطيع أوامري بسهولة.. ليس سرا أني ألبي له طلباته الصغيرة عن طيب خاطر وبسعادة كبيرة، ودون علم والدته في كثير من الأحيان .. بل وأتجاوز عن أخطائه رغم إصرار والدته على عقابه أحيانا، مجنون إن قمت بذلك .. من يرغب أن يعاقب ملاك صغير برئ للغاية بأي حال

السفينة

١٠ فبراير – دفتر يوميات القبطان (س)

وصلت اليوم بالسفينة "فيكتوريا" إلى ميناء الإسكندرية بعد إبحار استمر لأربعة أسابيع لم أرى خلالها اليابسة .. أخيراً أعود للإسكندرية بعد غياب طويل غير معتاد .. لم تطأ قدمي المدينة هنا من أربعة أعوام تقريبا، تحديداً منذ بداية تلك الحرب اللعينة .. سنمكث هنا لعشرة أيام على أي حال .. نحتاج لإجراء صيانة عاجلة، وشراء بعض البضائع قبل المغادرة .. تلك الرحلة ربما تكون فرصة طيبة للالتقاء بعدد من الأصدقاء القدامى هنا، وربما لتعويض بعض خسائري التي تكبدتها العام الماضي بسبب المقامرة ..

****

١٢ فبراير – دفتر يوميات القبطان (س)

التقيت اليوم بعزيزى السير "إدوارد" أثناء زيارتي لأحد التجار، وهو صديق قديم أعرفه منذ كان يعمل كمبعوث دبلوماسي لدى سفارتنا هنا من عدة سنوات .. كل ما أعرفه عنه حالياً أنه يعمل بالتجارة منذ ترك منصبه، كما أن لديه ولع خاص بدراسة الآثار المصرية مما مثل له دافعاً إضافياً بكل تأكيد للبقاء هنا بعيداً عن ويلات الحرب التي تعصف بأوروبا .. لم أمكث معه سوى لبضع دقائق على أي حال .. لكنه دعاني لتناول العشاء غداً في منزله .. كم أشتاق للاستماع لحديثه الشيق ولعزفه المتفرد على البيانو؛

أتذكر أن لمستر إدوارد أصابع ذهبية لا تقارن سوى بأمهر العازفين .. يمكننى أيضاً الاستفادة من خبرته وإلمامه بأحوال السوق المصرية لمعرفة أجود البضائع هنا وكيفية الحصول عليها بأسعار مناسبة ..

****

١٣ فبراير – دفتر يوميات القبطان (س)

بعد العشاء طلب مني مستر إدوارد الاجتماع قليلاً بمكتبه .. أدركت أنه يرغب بحديث خاص بعيداً عن أسماع زوجته وبناته .. طلب من خادمه تقديم الشاى في المكتب .. تجاذبنا الحديث لبرهة، ثم لدقائق بدأ يسرد آخر أخباره .. أفضى لي بحماس عن صفقة هامة تستحوذ على كثير من اهتمامه في الفترة الأخيرة .. لم يطلعني على طبيعة الصفقة، ولم أشأ التطفل بسؤاله .. لكنه أكد أنها ستدر عليه دخلاً كبيراً .. بدا مهتماً بالسؤال عن عملي على غير العادة .. أصغى إلى التفاصيل باهتمام بالغ لم أعتاده .. تكدر قليلاً عندما علم أني سأغادر الإسكندرية في غضون أيام قليلة .. انتهزت الفرصة فسألته عن طبيعة السوق المصرية وجودة بعض البضائع هنا فأجابني بقدر خبرته لكنه وعد بتقديمي إلى بعض التجار، بل وتزويدي بخطاب توصية للقنصل التجاري في الإسكندرية من أجل مزيد من التسهيلات التي أحتاجها .. مكثت معه لوقت متأخر تلك الليلة، شكرته قبل أن أنصرف .. بدا مشتت الذهن وهو يودعني، لكنه وعدني بزيارة ثانية لمناقشة بعض أعماله قبل المغادرة ..

****

١٥ فبراير – دفتر يوميات القبطان (س)

اليوم التقيت مجددا بالسيد إدوارد .. ليس في مكان عمله أو منزله كما توقعت أن يدعوني، بل تفاجئت بزيارته للنزل الصغير المتهالك الذي أقيم به .. لم أكن متواجداً وقتها فانتظرني لساعة كاملة، هكذا علمت من صاحبة النزل المسنة .. رحبت به محاولاً قدر الإمكان إخفاء دهشتى لزيارته غير المتوقعة .. بعد تبادل التحية المعتادة، طلب التوجه إلى غرفتي من أجل حديث خاص .. بمجرد أن وصلنا حتى تأكد من إحكام غلق الباب، تجول في المكان بقلق لدقائق دون أن ينبس بكلمة، بدا عليه التردد لبرهة قبل أن يردد وهو يتناول منديله ليجفف عرقه رغم برودة الجو:

- هل تذكر الصفقة التي حدثتك عنها من قبل .. حسناً .. يمكنك القول أني أنجزتها .. لكني أحتاج لمساعدتك ..

التزمت الصمت تماماً .. كان يبدو جاداً للغاية وقلقا بصورة لم أعتادها، كما أن الفضول بدأ يقتلني حقاً فلم أشأ مقاطعته .. تحدث قليلاً في البداية عن هوايته باقتناء الآثار، وعن بعض القطع الأثرية المميزة التي تمكن خلال السنوات الماضية من الحصول عليها بصورة أو بأخرى .. سكت لبرهة، ثم بدأ يدلي بتفاصيل صفقة ما عقدها مؤخراً مع بعض مكتشفي الآثار المحليين .. كان يتكلم بسرعة شديدة فحاولت أن أصغي إليه بتركيز أكبر دون أن أقاطعه .. أفضي لي بصوت أقرب للهمس بنجاحه في الفترة الأخيرة في الاتفاق مع بعض منقبي الآثار على شراء محتويات أحد المقابر الفرعونية القديمة .. وعن خطته لنقل تلك الآثار إلى لندن لبيعها لعدد من محبي الآثار هناك، وهو على صلة قوية

بالعديد منهم بالفعل .. قال أنه يرغب في مساعدتي لشحن تلك البضائع

- مجرد بضع صناديق .. لا أكثر .. لكنها تحتاج إلى عناية خاصة ..

تفاجئت بعرضه بالطبع .. لم أشأ أن أرد عليه دون تفكير .. وعدته ببحث الأمر والرد عليه في أقرب وقت لكنه اختتم حديثه بأن عرض علي مبلغاً كبيراً من المال لم أتوقعه .. كتمت دهشتي، كان المبلغ مغرياً بالفعل، لكني لم أمنحه رغم ذلك موافقتي في الحال .. أحتاج لبعض الوقت للتفكير؛ معلوماتي عن تجارة الآثار تكاد تكون محدودة .. أعلم أنها تجارة رابحة .. قابلت عدد من الفرنسيين ممن لديهم ولع خاص بالآثار، وحكي لي أحدهم عن قطعة أثرية اشتراها بآلاف الجنيهات تكفي لإنهاء كافة متاعبي المالية .. كدت أن أصعق وقتها لضخامة المبلغ الذي دفعه .. أعرف أيضاً أن عدد من زملائي يعملون بتلك التجارة ويقومون بنقل الآثار بصورة مستمرة .. احترم مستر إدوارد صمتي فلم يقاطعني .. وجدت نفسي فجأة أندفع فأسأل مستر إدوارد دون وعي:

- هل توجد بها مومياوات؟

ألقيت عليه السؤال بلا تفكير .. لكنه ابتسم على الفور قائلاً أنه غير مهتم بتلك المومياوات عديمة الفائدة .. تنفست في ارتياح .. رغم كل شئ لا أحب أن أشحن تلك الجثث اليابسة على ظهر سفينتي .. هناك شائعات عن بعض السفن التي كانت تنقل تلك المومياوات وتعرضت للغرق .. فكرت لدقائق، ثم منحته موافقتى بعد تردد .. عرض علي مبلغاً كبيراً من المال سال له لعابي، وأحتاجه بالفعل

لتسديد بعض ديون المقامرة التي أغرقتني في الفترة الماضية .. والأمر لا يعدو كونه بضع صناديق لن تشغل حيزاً كبيراً من مخزن السفينة على أي حال ..

****

١٨ فبراير – دفتر يوميات القبطان (س)

تم اليوم شحن الصناديق .. ثلاث صناديق كبيرة مغلقة بإحكام نقلها العمال بحرص إلى السفينة .. ورغم أن الصناديق استغرق نقلها وقتاً طويلاً نظراً لثقلها، لكن مستر إدوارد تابع عملية الشحن بقلق كبير دون أن يفارقني .. أعلم أنه استثمر مبلغا كبيرا من المال في تلك الصناديق، لهذا تبدو عليه سيماء التوتر البالغ .. ورغم ثقتى الشديدة بمستر إدوارد، لكني صممت على رؤية محتويات أحد الصناديق بنفسي، ربما بدافع الفضول لا أكثر .. قمت بفتح أحد الصناديق بحرص شديد واطلعت على محتوياته، شعرت بالرهبة قليلاً أمام تلك الآثار العتيقة التي نجت من تحديات الزمن، تحتاج لعناية خاصة بالفعل عند نقلها فبعضها يبدو قابل للكسر بسهولة .. لم تشغل الصناديق حيز كبير من مخزن السفينة الرئيس .. أتوقع خلال يومين أن تصل بعض البضائع التي حرصت على شراؤها مؤخرا .. سأغادر بعدها على الفور ..

****

٢٠ فبراير – دفتر يوميات القبطان (س)– قبل يوم واحد من السفر

أحد عمال السفينة تورط في شجار بالأمس .. يبدو أنه لن يتمكن من اللحاق بالسفينة بعد أن تطور الشجار بينه وبين خصمه ليطعنه بمدية حادة مما أدى للقبض عليه .. لن أتمكن من البقاء هنا لفترة أطول لمساعدته فبعض البضائع قد تفسد، كما أني مرتبط بمواعيد تسليم يصعب الإخلال بها .. سنسافر دونه على أي حال رغم أنه من أفضل عمال الصيانة لدي .. غداً سنبدأ الإبحار مع الساعات الأولى من الصباح

****

٢١ فبراير- سجل السفينة (اليوم الأول)

صباحاً

انطلقنا مع إشراقة الشمس الأولى، السماء شبه صافية والرياح معتدلة .. البحر صاف كطفل وديع .. سنتوقف في بعض الجزر في الطريق للتموين .. نأمل أن نصل وجهتنا النهائية خلال أسبوعين من الآن

مساءً

هدأت الرياح على غير العادة .. ما زلنا نبحر بسرعة معتدلة .. ثلاث أيام ونصل إلى أقرب ميناء إذا واصلنا بتلك السرعة

****

٢٢ فبراير- سجل السفينة (اليوم الثاني)

السماء صافية لكن الرياح بدأت تشتد مع الساعات الأولى من الصباح .. لا جديد سوى إصابة مساعدي بنزلة برد قوية نصحته على أثرها بملازمة الفراش

عصراً

راقبت بعض السحب وهي تتجمع في المساء .. أتوقع أمطاراً في الليل

منتصف الليل

توقعت أمطاراً معتدلة لكنها تمطر لساعتين دون توقف .. والبحر الهادئ كشر عن أنيابه فجأة .. اضطررت لإلغاء فترات الراحة لطاقمي .. سنضطر للعمل طوال الليل تحسباً لأي طارئ

****

٢٣ فبراير- سجل السفينة (اليوم الثالث)

فجراً

مع تباشير الصباح الأولى اكتشف أحد الفنيين تسرب للمياه في غرفة المحركات .. اللعنة .. لم أتوقع ذلك .. قمت بإجراء صيانة شاملة للسفينة قبل المغادرة فكيف ظهر التسرب .. أخشى أن تنفذ المياة إلى محرك السفينة الرئيس فتصيبه بعطل ما .. دفعت بعدد من الفنيين والعمال لنزح المياه على الفور وأرسلت مساعدي رغم مرضه للإشراف عليهم بنفسه

ظهراً

نجح العمال في نزح المياه من غرفة المحركات .. لكن ما كنت أخشاه وقع بالفعل .. تسربت بعض المياه لمحرك السفينة ويبدو أنها أصابته بخلل ما .. أسمع هدير المحرك العالي على غير العادة من مكاني هنا على سطح السفينة، لكنه ما زال يعمل

مساءً

ظهر تسريب آخر في مخزن البضائع لكنه محدود سيطرنا عليه دون مجهود .. فسدت بعض البضائع بعد اختلاطها بالماء .. ما زال المحرك يصدر أصواتاً عالية .. أصدرت أوامري بإرسال نداء استغاثة لأي سفينة عابرة من باب الاحتياط .. قللت من سرعة السفينة أيضاً قدر الإمكان حفاظاً على سلامة المحرك

****

٢٤ فبراير- سجل السفينة (اليوم الرابع)

توقف محرك السفينة الليلة الماضية بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر .. أمرت البحارة بنصب الأشرعة .. سنعتمد على سرعة الرياح .. لم نقابل أي سفن عابرة وهو ما يثير دهشتي .. يبدو أن أنباء العاصفة المفاجئة دفعت السفن لتجنب الإبحار، أو لتغيير مسارها .. سأعتمد فقط على قوة الرياح لدفع السفينة، لا حل آخر لدى ..

مساءً

الهواء معتدل .. نسير بسرعة أقل من المتوسطة لكن دون توقف .. حل إرهاق شديد بالبحارة بعد أحداث الأيام الماضية فمنحت عدداً منهم فرصة للراحة .. مساعدي حالته تسوء، وطبيب السفينة يبدو عاجزاً عن علاجه .. كانت تبدو عليه آثار الإعياء الشديد بالأمس، لكنها زادت بوضوح اليوم .. ارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة مصحوباً بجفاف شديد ورعشة في الأطراف .. نقلناه إلى حجرته ومنعنا أي من طاقم السفينة من زيارته باستثنائي أنا والطبيب .. سأسهر اليوم مع بعض البحارة، النوم يجافيني على أي حال بعد كل تلك الأحداث السيئة، والتي زادها سوءا تعطل لاسلكي السفينة القديم فلم يعد بإمكاننا استقبال أو إرسال أية رسائل

****

٢٥ فبراير- سجل السفينة (اليوم الخامس)

هدأت الرياح تماماً .. لم نتحرك إلا قليلاً طوال المساء .. في الصباح غرقت في نوم عميق نتيجة للإرهاق الشديد .. استيقظت فزعاً على صوت أحد البحارة .. ظهر التسريب مرة أخرى في مخزن البضائع .. توجهت إلى هناك على الفور .. عملنا بكل قوانا على المضخات لنزح المياه حتى لا تغرق السفينة .. لساعات ظللنا نعمل حتى تمكنا من السيطرة على التسريب بصعوبة .. أمرت أحد مساعدي بإحصاء الخسائر لتكون المحصلة صادمة .. خسرنا معظم حمولة السفينة من الحبوب بعد تسرب المياه إليها وفسادها، وبعض مؤن السفينة من الطعام .. اللعنة .. كنا مرهقين تماماً في المساء .. نمنا ليلتها في شبه إغماءة نتيجة للمجهود الذي بذلناه طوال اليوم

٢٦ فبراير- سجل السفينة (اليوم السادس)

صباحا

لم تتحرك السفينة طوال الليل سوى عدة أميال بالكاد .. لا أعلم سر كل تلك الأحداث الغريبة المتتالية .. لو استمر سكون الرياح سنخسر كل بضائعنا قبل أن نصل للميناء .. تفقدت اليوم مخزن السفينة مجدداً .. الغريب حقاً أن المياه لم تصل للصناديق الأثرية رغم تكرر التسريب .. بقيت جافة وفي حال جيدة ..

ظهراً

كارثة جديدة لم نعمل لها حساباً .. وباء غامض انتشر بين بعض البحارة .. يبدو أنه بدأ بمساعد القبطان من عدة أيام .. لكن المرض انتشر بين اثنان آخران من البحارة رغم احتياطاتنا، وبسرعة لم نعمل لها حساباً .. لم أواجه طوال حياتي كل تلك السلسلة من الكوارث المتلاحقة .. يجب أن أبدو هادئاً قدر الإمكان لبث الطمأنينة في نفوس البحارة رغم ما يعتمل بداخلي من قلق شديد يكاد يفترسني

****

٢٧ فبراير- سجل السفينة (اليوم السابع)

اليوم حصد المرض نصف عدد البحارة ولم تفلح وسائلنا التقليدية في وقف انتشاره على السفينة .. أجد نفسي على حافة الانهيار عاجزاً عن التفكير خاصة بعد نفاذ الأدوية ومياه الشرب النقية لدينا

****

٢٨ فبراير- سجل السفينة (اليوم الثامن)

صباحاً

سجلنا أول حالة وفاة .. بحار عجوز فتك به المرض فلم يستطع جسده الواهن مقاومته .. تلك أول حالة وفاة أشهدها على سفينتي من فترة طويلة .. تملكنا الرعب .. الموت يحوم حول السفينة .. لا ندري من التالي على قائمة ضحاياه

انتفض البحارة .. انتشرت الشائعات بينهم .. لم نتعرض لكل تلك الظروف غير الطبيعية من قبل .. كل أفراد الطاقم ممن سافروا معي عدة مرات وليس بيننا أى عامل جديد لعلنا نوجه إليه اتهاماتنا بسوء الطالع .. اتجه تفكير البحارة على الفور إلى تلك الصناديق الغامضة الراقدة في مخزن السفينة .. سرت الهمهمات بينهم سرا في البداية قبل أن ترتفع أصواتهم .. حاولت إقناعهم أن المنطق لا يقبل علينا الجزم برأي دون أدلة معقولة وملموسة فلم يقتنع أحد .. رفضوا كلامي .. شعرت ببوادر ثورة بينهم .. كنا في وضع بائس .. السفينة وسط البحر بعد تعطل المحرك .. لا توجد سفن عابرة .. تأخرنا في طريقنا بعد أن ضرب المرض كثير من أفراد الطاقم .. وخسرنا نصف البضاعة التي نحملها .. لو كانت تلك مفارقات حقاً لما اجتمعت بشكل أسوأ من ذلك .. الشئ الذي أصبح مؤكداً لدى الجميع أن هناك لعنة ما تطاردنا

منتصف الليل

ازدادت القناعة لدى البحارة بشكل يطغى على أي صوت للعقل .. رغم أني رجل عملي لا أهتم إلا بالحقائق ولا أصدق تلك الخرافات

لكن بدأت مقاومتي تقل .. لا يمكنني المخاطرة بإثارة البحارة ضدى في مثل تلك الظروف، وبوادر الثورة أراها بوضوح تعتمل في صدورهم من الأمس .. رمينا أول صندوق في الماء .. تخلصنا منه .. رغم أنه مصنوع من الخشب إلا أنه غرق بسرعة .. رأى البحارة ذلك دليلا على صدق مزاعمهم الواهية .. نجح ليلتها أحد الفنيين في إصلاح عطب الماكينة .. لم تعمل بعد سوى بشكل طفيف لكنها عادت للعمل على أي حال .. في الفجر تسلل بعض البحارة وقاموا برمي الصندوق الثاني دون إذن مني .. لم أستطع معاقبتهم .. أحتاج لجهود كل فرد منهم لمواجهة تلك الظروف العصيبة وغير مستعد للتضحية بعقاب أحدهم .. أو لتحمل نتائج ثورتهم وتمردهم الوشيك

****

٢٩ فبراير- سجل السفينة (اليوم التاسع)

أفكر في كل ما حدث .. وأسترجع كل القصص التي سمعتها عن لعنة تلك الآثار، والمصائب التي حلت بكثير من الباحثين عنها .. لم أستطع الوصول إلى رأي حاسم ومنطقي .. ما حدث طوال الرحلة ينافي المنطق على أي حال .. كنت مرهقاً بشدة من قلة النوم والطعام .. لم أبدي اعتراضاً عندما طلب مني البحارة التخلص من آخر صندوق .. نمت بعدها بعمق لأول مرة منذ بدأت الإبحار .. استيقظت بعد ثلاث ساعات على صوت مساعدي .. اصطحبنى وأنا نصف نائم لكابينة القيادة .. رأينا الميناء عن بعد .. لم أصدق عيناي، نحتاج لعدة ساعات للوصول إليه

في الليل انزاحت السحب التي غطت السماء .. استطعنا رؤية النجوم وبدأت الاهتداء بها .. لم تتحرك السفينة طوال الليل سوى بضع أميال فقط ولكنها أسرع من باقي الليال ..

أبحرنا نحو الميناء طوال اليوم .. ووصلنا قبل الفجر مرهقين تماماً

****

١٤ مارس - بعد ثلاثة أيام من الوصول / دفتر يوميات القبطان (س)

ما زالت أستريح في منزلي بعد الأحداث التي واجهتها .. السفينة تحتاج لإصلاح شامل، خسرت معظم البضائع التي أحملها ولم أدفع بعد للبحارة أجورهم .. لن يكفي بيع حطام سفينتى لتسديد ديوني .. ربما أبيع المنزل، لا حل آخر لدي .. تلقيت بالأمس برقية من مستر إدوارد يبلغني فيها بأنه في طريقه للندن .. يبدو أنه سمع عن تأخر السفينة في الوصول وتملكه القلق فأبحر في أول سفينة غادرت ميناء الإسكندرية .. سيتسبب لقائي معه بكثير من الحرج .. لا أدري كيف أواجهه بغرق حمولته، أو إغراقها على وجه الدقة .. لا أعلم ردة فعله وكيفية تقبله للأمر لكني قررت مصارحته بالحقيقة كلها مهما كانت النتائج

٢٠ مارس - تسعة أيام من الوصول / دفتر يوميات القبطان (س)

لقائي مع مستر إدوارد كان عاصفاً .. صمم على لقائي في نفس يوم وصوله .. كان قلقاً بشدة على مصير الصناديق الأثرية .. اضطررت لإخباره بالحقيقة كلها دون مواراة فتلقاها صادماً .. لم

أتوقع رد فعله .. لبرهه ظل صامتاً دون كلام .. ثم انفجر فجأة في وجهي بثورة شديدة .. اتهمني بالجنون لتصديقي تلك الشائعات السخيفة .. ثم بشكل مباشر بسرقة محتويات الصناديق ومحاولة تلفيف قصة وهمية .. لم أشأ الدفاع عن نفسي، لدي عدد من البحارة كشهود على صدق القصة، والدائنون الذين يحاصرون منزلي يدعمون أقوالي .. أخبرني أنه وضع معظم ما يملك في تلك الصفقة .. واصل إهاناته فلم أجد بداً من طرده من منزلي .. خرج ثائراً وهو يتوعدني بشدة .. لم يكن طبيعياً .. لمحت في عينيه نظرة جنونية .. لم أتوقع أن تصدمه الحقيقة إلى ذلك الحد

****

٢٤ مارس - لندن – صحيفة التايمز

يتم اليوم تقديم السير إدوارد لمحاكمة عاجلة بعد قتله السيد سومسرت قبطان سفينة فكتوريا، وهي الجريمة التي هزت أوساط المجتمع مؤخراً، وروعت أفراده .. وسيواجه المحققون صعوبة في التعامل مع المتهم بعد إصابته بنوبة عصبية شديدة دخل على أثرها في حالة صدمة مما ترتب نقله إلى مستشفى "لندن" المركزي لمتابعة حالته هناك

ويستند الإدعاء إلى سجل السفينة "فيكتوريا"، بالإضافة إلى مذكرات القبطان الشخصية والتي تم العثور عليها داخل منزله، وفيها يلقي الضوء على طبيعة علاقته بالمتهم، بالإضافة إلى أقوال بعض البحارة ممن رافقوا القبطان في رحلته الأخيرة، وقد التقي مراسلنا في وقت لاحق بعدد منهم، الغريب أن بعضهم تحدث عن وجود لعنة ما وراء كل ما حدث، بل أكد بعضهم أن تلك اللعنة ما

زالت تطاردهم؛ حيث احترق منزل أحد البحارة دون سبب معلوم، وتوفيت زوجة بحار آخر قبل عودته بعدة أيام فقط، وهي الأقاويل التي تتنافى مع العقل والمنطق .. وفي السياق نفسه، دفع محامي المتهم بضرورة إجراء تحليل طبي شامل لموكله في محاولة للكشف عن قواه العقلية قبل عرضه على القضاء، معبرا عن ....

****

في نفس الوقت عصرا – أحد مقاهى القاهرة الشعبية

دخل اثنان إلى المقهى الشعبي الرابض في أحد أحياء القاهرة القديمة، استقرا على منضدة خشبية قصيرة خارج المقهى، أحدهما طويل ممتلئ الجسد يرتدي جلباب وقفطان من الصوف، بينما الأخر قصير حاد القسمات لا تكاد سبحة ذهبية تفارق يده وإن كان لا يحركها إلا قليلاً

- كانت صفقة جيدة

قالها الطويل سريعاً .. ارتسمت ابتسامة شاحبة على وجه صديقه وهو يتلاعب بمسبحته الذهبية، قبل أن يرد:

- نعم .. كانت صفقة رائعة بحق

عاد لينفث دخان الشيشة ببطء، قبل أن يكمل وهو يبتسم بسخرية:

- ذلك الإنكليزى الأحمق .. لن يصدق أن تلك الصناديق التي بعناها له تحوي آثار مقلدة بإتقان شديد إلا بعد فوات الأوان ..

المشاغب

أنهيت اجتماعي في الوزارة أخيراً، تنفست الصعداء، لملمت أوراقي ثم عدت سريعاً إلى المدرسة، مازال هناك العديد من الأعمال علي القيام بها هناك .. كنت أول من يغادر مبنى الوزارة من الحضور؛ لا أحب حقا تلك الاجتماعات الروتينية الحمقاء، وما تثيره في نفسي من ملل

وصلت المدرسة متأخراً، بدأت العمل على الفور، لساعتين انشغلت تماماً بفحص ومراجعة بعض أعمال الصيانة، قبل أن أعود إلى مكتبي مرهقاً فور انصراف العاملين، تنفست الصعداء مرة أخرى وأنا أسترخي على مقعدي الوثير .. لا أشعر بالراحة سوى في مكتبي هنا وسط تلك المدرسة الصغيرة التي قضيت بها ثلثي عمري تقريباً، منذ كنت طالباً بها، وحتى وصلت إلى منصب مدير المدرسة

مازلنا نستعد لبداية العام الدراسي الجديد، اليوم الأول هو الأصعب، والكل يعمل بجهد .. أتأكد من كل شئ بنفسي، وأراجع كل الترتيبات تحسباً لأي طارئ .. أتوقع رغم ذلك بعض الأخطاء كعادتنا كل عام؛ هفوات صغيرة لا يمكن تجنبها على أي حال، ولن تنتقص من سمعة مدرستنا الجيدة التي حافظنا عليها لسنوات

دائماً يصيبني التوتر قيل بدء الدراسة، وكأني تلميذ يستعد لأداء امتحان هام .. مازلت أتذكر أول مرة جئت فيها إلى هنا؛ تلميذ ضعيف البنية بأحلام وطموحات نضجت أسرع من سنه، لا يحدوه

الأمل سوى في مستقبل أفضل .. قضيت سنوات دراستي الإعدادية والثانوية هنا، لم أبتعد عن المدرسة سوى أربع سنوات قضيتها في الجامعة، قبل أن أعود مرة أخرى إلى أحضانها .. وتلك المرة معلما

لم أصدق عندما جاء قرار تعييني هنا، قبلها قمت بزيارة أحد أقاربنا والذي يشغل منصب هام في الوزارة، كل ما طلبته أن أكون بمدرسة قريبة من منزلي، نظراً لقيامي برعاية أمي المريضة وقتها وخطورة حالتها التي قد تستدعي سرعة حضوري، لكني لم أتخيل أن يصدر قرار تعييني في المدرسة نفسها التي تخرجت منها .. وأكثرها قرباً من داري

مازلت أستشعر بعض المرارة كلما عاودتني ذكرى تلك الأيام .. لم تكن أيامي الأولى من عملي الجديد كمعلم سهلة؛ ارتكبت العديد من الأخطاء حقا، تهورت كثيراً، ربما بدافع الحماس، أو الرغبة السريعة في تغيير أي خطأ دون مراعاة لأي قواعد أو حدود .. زاد صدامي مع عدد من المعلمين والموجهين بشكل ينذر بفصلي، راجعت نفسي بجدية، وتدريجياً بدأت أحكم عقلي ويقل حماسي.. أصبحت أكثر تقبلاً لنظام المدرسة مهما كانت أخطاؤه، وأقل حساسية مع ثغراته .. تحولت من مدرس مشاغب إلى مجتهد، ثم مدرس مثالي في سنوات بسيطة .. ترقيت عدة مرات حتى وصلت إلى منصب ناظر المدرسة قبل أن أصل إلى الأربعين، ربما كنت أصغر ناظر مدرسة وقتها في المنطقة، لذلك ضاعفت جهدي .. قبل أن يحال مدير المدرسة إلى المعاش، لأحل محله، وفي خلال بضع سنوات فقط، كان لدى مدرستنا سمعة جيدة أفتخر بها

تفقدت المدرسة جيداً، رغم مرور السنوات لم تتغير كثيراً عما اعتدت عليه أيام دراستي؛ فقط طلاء مغاير وأثاث جديد .. زادت أعداد الطلبة بشكل كبير في الفترة الأخيرة، وللتغلب على تلك المشكلة، قررت الوزارة تحويل المدرسة لتقتصر على طلاب المرحلة الإعدادية فقط، بعد افتتاح مدرسة ثانوية قريبة .. ومازلنا بحاجة إلى مدرسة إعدادية جديدة أخرى، رغم وجود ثلاث مدراس في مدينتنا الصغيرة المكتظة بالسكان

لم أنم كعادتي طوال فترة الأسبوع الأول من الدراسة، اعتدت أن أظل كل يوم في المدرسة حتى بعد انصراف الطلاب لمراجعة وتقويم أي أخطاء تظهر .. مرت الأيام سريعا دون مشاكل، تلقيت المديح من الوزارة، تفاءلت خيراً بالعام الجديد، وبدأ القلق الذي يتملكني يزول تدريجياً مع مرور الأيام

امتصني العمل تماما .. في بداية الأسبوع الرابع تفاجئت بوكيل المدرسة يصطحب طالب إلى غرفتي؛ طالب مشاغب دون شك فشلت كل جهود المعلمين والأخصائي في ردعه .. لم أخفي دهشتي الشديدة؛ عادة يمثل التحويل إلى مدير المدرسة الخطوة الأخيرة للتعامل مع الطلبة المشاغبين بعد استنفاذ كل الطرق الأخرى، وبعد فشل كل من الأخصائي الاجتماعي وناظر المدرسة في التعامل مع مشكلة الطالب .. راجعت أوراقه بدهشة، مازلنا في الأسابيع الأولى من الدراسة، والطالب أثبت استحقاقه لأشد أنواع العقاب بالفعل بعد أن تجاهل كل التحذيرات السابقة التي وجهت له

تطلعت إلى وجه الطالب الذي لم يبد خائفاً أو قلقاً .. لم يكن وجهه مألوفاً؛ أكاد أميز عادة كل طلاب المدرسة، لا أحفظ أسمائهم

بالطبع لكن يمكنني التعرف عليهم نظراً لتواجدي المكثف بينهم .. تحققت من حدسي عندما أخبرني وكيل المدرسة أن الطالب جديد؛ انتقل حديثاً ذلك العام فقط من مدرسة أخرى تم فصله منها .. طالب معتاد الشغب إذن، اعتدلت في مقعدي على الفور، لا أحب تلك النوعية من الطلاب، ولا أرغب بتواجدها في مدرستي، أؤمن تماماً أن الشغب كالعدوى، طالب مشاغب واحد يمكنه أن يفسد فصل بأكمله

تطلعت إليه لبرهة دون أن أتكلم، كان طويل القامة مقارنة بأقرانه، ملابسه رثة إلى حد ما، ينحدر في الغالب من أسرة تميل إلى الفقر، في عينيه نظرة تحد وذكاء، ويقف بثبات دون خوف .. طلبت بهدوء من وكيل المدرسة كشف بدرجات الطالب في الأعوام السابقة، لأتفاجئ بأن معدل درجاته ليس بالسئ، على الأقل مثل سلوكه، في الواقع كانت درجاته في معظم المواد جيدة إلى حد ما .. حيرني الأمر لوهلة، عادة يكون مثيري الشغب من الطلاب ضعاف التحصيل؛ نظامنا التعليمي لا يجيد التعامل معهم، يجد الطالب نفسه وسط أقران يفوقونه علماً وتحصيلاً، يعجز عن مجاراتهم ولا يفهم ما يدور في الفصل، فيبدأ الشغب

ما الذي فعله حتي يتم تحويله إلى مكتب مدير المدرسة إذن .. أكد الوكيل أنه تشاجر مع عدد من المعلمين، واعتدى بالضرب على اثنان من زملائه .. زاد غضبي، عادة أتعامل مع الطلاب مثيري الشغب بصرامة أكبر من المعتاد .. أفضل الحل الجذري، واتخاذ خطوات قاسية منعاً لتكرار السلوك .. لكن لدافع ما بداخلي لا أدري كنهه، قررت أن أبدأ بحلول أقل صرامة .. انصرف وكيل المدرسة بعد أن سلمني ملف الطالب فأومأت له بالجلوس، أطاعني

بعد برهة دون كلام، سألته بضع أسئلة فأجابني باقتضاب شديد .. طالب عنيد هو، قابلت تلك النوعية من الطلاب كثيراً، معظمهم يتمتع حقاً بذكاء عال، وغرور أعلى، لهذا ينتهي مصيرهم إلى الفشل .. تحدثت معه لدقائق بهدوء، أقسم أن مدرس الرياضيات حاول ضربه بالعصا بعد أن فشل في إجابة أحد الأسئلة، فكسر عصا الأستاذ دفاعا عن نفسه، اندفع قائلاً أنه لن يسمح لأحد بضربه .. ورغم لهجته الحادة، لم ينكر قيامه بالاعتداء على عدد من الطلاب ممن ضايقوه .. ضحكت رغماً عني، لم يقبل أن يتعرض للضرب من معلمه، لكنه مارس السلوك نفسه مع أقرانه .. طلبت من الأخصائي أن يعد تقرير شامل عنه، لم أشأ اتخاذ قرار حاسم تجاه طالب ما في بداية العام دون التأكد من صحة تلك الخطوة .. صرفت الطالب بعد تحذيره، ثم نسيت الأمر بأكمله

لم يكد يمر أسبوع، حتى عاد إلي مرة أخرى، تلك المرة بعد أن تشاجر مع معلمة العلوم .. تذكرته على الفور، طلبت من الأخصائي التقرير الذي أمرت بإعداده، قرأته بإمعان، لم يمدني التقرير بما أريد، فقط معلومات رسمية لا تشفي غليلي .. طالب من عائلة فقيرة، توفي والده من أربع سنوات ويعيش مع والدته، له أخ واحد يصغره بثلاث أعوام، وتم فصله من عدة مدارس .. لم أجد بالتقرير ما يفسر سلوك الطالب أو بحث أعمق لحالته كما طلبت، تملكني الغضب، هل أعاقب الأخصائي الاجتماعي أيضاً .. تطلعت للطالب، صممت في قرارة نفسي أن أجعل منه عبرة لأي طالب مشاغب .. سألته عن سبب المشكلة، تردد قليلاً، لم أتمالك نفسي فصحت في وجهه بغضب شديد وأنا أعيد السؤال للمرة الثانية، تلك المرة رفع رأسه بعزة نفس شديدة، وأجابني باقتضاب

بأنه يعاني من قصر النظر .. لوهلة لم أفهم، ثم أدركت لاحقا كل شئ .. طلبت منه المعلمة حل أحد المسائل على السبورة، بينما كان يجلس في نهاية الصف كعادته كنوع من العقاب، لم يتمكن من ذلك بالطبع، ومنعه الكبرياء من الاعتراف أمام زملائه بأنه يعاني من قصر النظر، تكلم بحدة مع المعلمة التي عاقبته لكنه لم يتقبل العقاب .. انتهى من كلامه فانتابتني مشاعر متضاربة، اختفى غضبي ليحل محله شعور بالذنب .. طلبت من وكيل المدرسة التحدث مع المعلمين كي يسمحوا له بالجلوس في مقدمة الصف، دون إبداء أي أسباب .. وبمجرد أن انصرف حتى طلبت من ممرضة المدرسة على الفور إعداد قائمة بكل الطلاب ممن يعانوا من قصر النظر، أو أي مشاكل أخرى تعيق الرؤية، حتى لا تتكرر تلك المشكلة مرة أخرى

مر شهر وكدت أنسى أمر الطالب، حتى عاد مجدداً، بعد أن أتلف بعض ممتلكات المدرسة، لم يفض بأسباب معقولة لتصرفه العدواني غير المبرر، اتخذت أول إجراء رسمي ضده، أمرت بفصله لمدة يومين، مع استدعاء ولي أمره، وتحمله كافة نفقات إصلاح ما أتلفه

اختفت مشاكله بعدها لفترة، لكنها فترة قصيرة للأسف .. بعد تلك الحادثة بعدة أيام، كنت أتابع الطلاب أثناء فترة الاستراحة اليومية؛ عادة أتابع الطلاب من نافذة المكتب التي تطل على الساحة الداخلية الكبيرة للمدرسة .. لفت انتباهي اثنان من الطلاب يتحرشان بطالب آخر .. عادة لا أقبل تلك التصرفات، ولا أسمح لها أن تحدث في المدرسة، ربما لأني تعرضت لمضايقات مماثلة عندما كنت طالباً، وأعرف مدى ما تسببه من ألم .. قررت التوجه بسرعة إلى الساحة

وتنبيه المشرف، قبل أن أرى الطالب المشاغب نفسه، لكنه الآن يخوض مشاجرة غير متكافئة، لحماية الطالب الضعيف كما يبدو .. الغريب أنه تصرف بشجاعة رغم أن الطلاب المعتدين أكبر منه حجماً، وبالطبع رجع إلى مكتبي بعد انتهاء الراحة، ولم أعاقبه

ثم تكررت مشاغباته، ولم أجد له عذراً .. طلبت من الأخصائي الاتصال بوالدته وقررت مقابلتها شخصياً، وعندما جاءت أخيراً بعد عدة أيام، تحدثت معها بجدية .. اعترفت أن ابنها عنيد بالفعل، يفتقد للانضباط ولا يطيع أي من أوامرها، لكنها تدرك أنه ذكي ومجتهد، وهو ما لاحظته .. لم تتمالك أعصابها وهي تتحدث عن سلوكه، أجهشت بالبكاء، طلبت منا مساعدتها، حيث تعجز عن الاعتناء به وتأديبه، خاصة بعد وفاة والده الصادمة، واضطرارها للعمل خارج المنزل لفترات طويلة كي تتمكن من الإنفاق على أسرتها .. شعرت بمدى ألمها، وأدركت تماماً مدى عجزها عن تأديب الطفل، توقعت أن تساعدني لكني فوجئت بها تطلب المساعدة .. وعدت الأم بمساعدتها قبل انصرافها، وراقبتها بشفقة وهي تغادر، لم أضع آمالاً عريضة على تلك الزيارة على أي حال

في الأشهر القليلة التالية تكررت زياراته إلى مكتبي بشكل مزعج حقاً .. تشاجر عدة مرات مع المدرسين، أتلف دورات المياة، كسر زجاج الفصل، ضرب عدد من الطلاب، سرق أدوات من مخزن المدرسة بعد أن نسى العامل إغلاق الباب، وكتب بعض العبارات المسيئة على جدران المدرسة .. تقريباً فعل كل شئ يمكن أن تضعه مدرسة على رأس قائمتها السوداء للسلوكيات المسيئة .. في بعض المواقف التمست له العذر، لكن تأكد لي بما لا يدع مجالا للشك أنه مذنب في مواقف أخرى .. تعاملت معه بصبر غير

معهود، ولدوافع غامضة لم أجد في نفسي رغبة لعقابه، وهو ما أثار دهشة العاملين في المدرسة .. لكني بدأت أضيق بالأمر في النهاية، ولم أعد أهتم بوعدي السابق لوالدته .. كنت قد استنفذت كل الوسائل لتأديبه؛ تحدثت معه عدة مرات بشكل ودي، نصحته مراراً، فصلته من المدرسة لعدة أيام، عاقبته بالحرمان من الأنشطة المدرسية، وخاطب الأخصائي والدته أكثر من مرة، كل تلك الجهود دون فائدة .. باتت تصرفاته تثير حنقي وتدفع كثيرين لتقليده، وهو ما كنت أخشى حدوثه، ولم أعد ألمس لديه أي رغبة حقيقية في تغيير سلوكه .. زادت مشاغباته لتشكل عبئاً على أعصابي يوماً عن يوم، خاصة أن كل مرة أعاقبه يعود أسوأ من قبل .. في ثورة غضبي، قررت فصله من المدرسة بشكل نهائي إن ارتكب مشكلة أخرى، بعد أن أدركت حقاً أن لا سبيل لإصلاحه، وأني تأخرت أكثر من اللازم في اتخاذ تلك الخطوة .. عادة يكون الفصل من المدرسة هو الحل النهائي، الخطوة الأخيرة التي لا أحبذ اللجوء إليها كثيراً، لكني كنت قد ضقت ذرعاً بالأمر

أقسمت إذن على فصله نهائياً إن عاد إلى مكتبي .. لكني لم أفي بقسمي رغم ذلك، ولأسباب غريبة حقا

في كل مرة يصحبه الوكيل إلى مكتبي، أقرر تنفيذ قسمي، لكنه يفلت من العقاب بصورة أو أخرى بشكل يثير الدهشة .. جاءني يوما بعد أن تشاجر مع أحد المدرسين، صممت بشكل قاطع على فصله، أمرت الوكيل بتجهيز تقرير تفصيلي عن الطالب كي ألحقه بقرار الفصل النهائي .. وبمجرد أن استلمت التقرير حتى تلقيت اتصالاً هاتفياً من حارس المدرسة، أخبرني أن زائر هام من الوزارة يتفقد المدرسة في تلك اللحظة .. صرفت الطالب على

الفور، خرجت من المكتب مسرعاً لمتابعة الزائر الهام، ونسيت التوقيع على قرار الفصل رغم تجهيزه، ويبدو أني تسببت في ضياع الورقة في خضم انشغالي بأمر الزيارة المفاجئة، لأني لم أجدها على مكتبي عند العودة .. بحثت عنها كثيراً دون جدوى .. ولأن غضبي بدأ يتلاشى، وانشغلت بعدة أمور هامة بعدها، عدلت عن قراري، ليفلت ذلك اليوم من العقاب

تكرر الأمر بعدها أكثر من مرة، وفي كل مرة يحدث طارئ ما يمنعني من توقيع العقوبة عليه وبشكل غريب .. كنا قبل نهاية العام بشهرين، عندما علمنا أنه سرق المقصف، تلك المرة لم أطلب حضوره إلى المكتب، قمت بكتابة قرار الفصل سريعا، وقبل توقيعه، تفاجئت بانقطاع الكهرباء عن المدرسة .. ولأننا في بدايات الصيف، والجو خانق داخل الفصول المكتظة بالطلاب، انشغلت بالأمر، ولم أتذكره سوى في اليوم التالي، عندها فقدت حماسي السابق لعقابه، خاصة بعد أن تلقيت اتصال من والدته تعتذر عما حدث وتعرض دفع تعويض لما سرقه

ثم وقع ما شغل ذهني .. بعدها بيومين مكثت داخل المدرسة لإنهاء بعض الأوراق، انصرف الطلاب مبكراً يومها بمناسبة العيد القومي للمحافظة .. لم يتبق في المدرسة سواي وعدد من المدرسين والعمال .. انشغلت بمراجعة بعض الملفات الهامة، شعرت بإرهاق، خاصة أني لم أنم جيداً في الليلة السابقة .. توجهت نحو النافذة لاستنشاق بعض الهواء، تطلعت إلى الساحة الخالية من الطلاب، ولوهلة لمحت شبح رجل يقف على الطرف البعيد من الساحة، لم أتبين ملامحه جيداً من تلك المسافة، لكنه كان طويل

القامة، يرتدي بذلة فاتحة اللون، يحدق في الساحة الخالية وقد عقد يديه خلف ظهره .. شيئاً ما دفعني وقتها لتذكر الأستاذ عبد المحسن

ارتسمت على وجهي ابتسامة شاحبة وأنا أتذكره، ناظر المدرسة السابق .. سمعت عنه لأول مرة عندما التحقت بالمدرسة كطالب، كنا نخاف منه حتى قبل أن نراه؛ من التحق بالمدرسة قبلنا يؤكد أنه رجل صارم يهوى العقاب، ولا يتسامح مع أي خطأ .. لم أتعامل معه في العام الأول من الدراسة، لم أكن طالب مشاغب أو متفوق .. طالب متوسط شديد الهدوء، تلك النوعية من الطلاب لا تلفت الانتباه، وإن كنت أخاف منه كلما رأيته بقامته الطويلة ونظراته الثاقبة .. اعتاد أن يقف بالساحة أثناء فترة الراحة لمراقبة سلوك الطلاب، يقف هناك بجوار مكتبه القديم على الطرف البعيد للساحة، ذلك المبنى الكبير الذي حل محله المقصف الآن .. ولأني كنت ضعيف البنية، كان كثير من الطالب يعتدون علي، ولم يكن لدي أصدقاء في تلك الفترة .. أتذكر في أحد الأيام عندما اعتدى علي طالب أثناء فترة الراحة، لم أنس ذلك اليوم بعد رغم مرور السنوات، وقتها رأى الأستاذ عبد المحسن ما حدث .. بعد انتهاء فترة الراحة، أمر باستدعائنا إلى مكتبه، عاقب المعتدي بقسوة أمامي حتى أنه لم يكرر الأمر بعدها، وجه إلى بعض النصائح، وطالبني باللجوء إليه على الفور إن تكررت المشكلة، ومن يومها بدأت المضايقات تقل، ولم تجمعني بالأستاذ أي مواقف بعدها طوال فترة دراستي

عندما تم تعييني في المدرسة، تذكرني على الفور، تملكته سعادة حقيقية أن أحد تلاميذ مدرسته عاد ليعمل مدرساً بها .. في عامي الأول ارتكبت العديد من الأخطاء؛ كنت أحاول تغيير كثير من

السلبيات التي أراها بالمدرسة، اندفاعي زاد عن الحد، وتهوري فاق الحدود فدخلت في مشاكل عدة مع الموجهين والوزارة، ولم يقف بجانبي سوى الأستاذ عبدالمحسن .. أدركت وقتها جانب آخر من جوانب شخصيته؛ كان مظهره الصارم يخفي قلباً من ذهب لا يراه حقا إلا من يتعامل معه عن قرب .. نصحني بتقبل ما لا يمكن تغييره، والابتعاد عن معارك لا طائل منها، مؤكدا أننا في النهاية أدوات تحركها الوزارة كما تشاء ولا وزن لآرائنا، ونصحني بالتركيز على تدريس مادتي والاهتمام بطلابي فقط، وهو ما فعلته، بعدها اختفت المشاكل، وزادت أواصر الصداقة والاحترام بيني وبينه

في أواخر أيامه كان يشكو من سوء أخلاق الطلاب، وتجاهل المعلمين لقواعد المهنة خاصة بعد استفحال موجة الغلاء التي طالت الجميع، ودفعت بالعديد من المعلمين إلى جنة الدروس الخصوصية .. كنت أتفق معه في كثير من آرائه، وأبدي أسفي عما وصل إليه حال المدرسة .. قبل خروجه على المعاش بعام ترقيت لأصبح وكيل المدرسة بفضله، ثم ناظر المدرسة بعد رحيله .. ما زلت أتذكر آخر يوم قضاه في المدرسة، وقتها فارقنا وكأنه يفارق روحه .. الغريب أنه بعد خروجه على المعاش بأسابيع قليلة فقط توفى، وكأن قلبه لم يتحمل فراق المدرسة وأصر أن يعبر بشكل عملي عن رفضه لفكرة البقاء بعيدا عنها.

أعدت النظر إلى الساحة مجدداً، تحرك الرجل ليختفي خلف المقصف، نزلت إلى الساحة وتفقدت المكان لكني لم ألحظ أي شخص هناك، ربما كان أحد المعلمين أو عامل في المقصف، لا أدري لما بدأت أتذكر كثير من الغائبين في الفترات الأخيرة، هل

هي علامات مبكرة للموت كما يقولون .. ابتسمت بشحوب، لا أؤمن بتلك الخرافات لكننا نضعف أمامها في بعض الأحيان، عدت إلى مكتبي لمواصلة العمل ونسيت ما حدث

في اليوم التالي مباشرة، عاد إلي الطالب مرة أخرى، وللمرة الثالثة أفلت من العقاب بشكل غريب .. تلقيت ذلك اليوم تكريماً من الوزارة .. كنت مبتهجاً للغاية حقا، لهذا عندما أتى به وكيل المدرسة لم أشأ عقابه وسط نشوة السرور التي تغمرني .. اكتفيت بتوبيخه، وصرفته سريعاً كي لا يفسد يومي

لكن يبدو أن تساهلي في عقابه، دفعه للمزيد من المشاغبة .. لم يتحمل الطالب فكرة أن يبقى هادئاً لأكثر من أسبوع آخر، وكأن توبيخي الشديد له لم يكن كافياً .. ذلك اليوم وقعت قرار فصله بالفعل، قرار أدرك أنه تأخر كثيراً، وقبل أن أسلمه لوكيل المدرسة لإنهاء باقي الإجراءات، تلقيت اتصال على هاتفي الشخصي .. علمت أن زوجتي صدمتها حافلة، أسرعت إلى المستشفى على الفور، لم أفكر في أي شئ سوى فيها، ولمدة أسبوع تغيبت عن المدرسة وأنا أتنقل بزوجتي بين المستشفيات، وعندما عدت كنت قد نسيت الأمر برمته

لكن سلسلة مشاكله لم تنتهي، ولم يشأ سوى أن يعكر صفوي، لاحظت تزايد حالات الشغب في المدرسة، ويبدو أن سلوكه وإفلاته من العقاب دفع مزيد من الطلاب لتقليده، ولأول مرة طوال سنوات عملي كمدير للمدرسة نعاني من حالات شغب بتلك الكثرة، وأرى المدرسة تفتقد النظام الذي طالما حرصت عليه ونجحت في ذلك لسنوات .. لذا بمجرد أن عاد إلى مكتبي بعد مشكلة جديدة، لم

أتردد للحظة تلك المرة، وقعت قرار الفصل، وسلمته إلى الوكيل .. ورغم اطمئناني تماماً لصحة القرار الذي اتخذته، إلا أن شعوراً بالضيق راودني لا أدري كنهه، ولازمني ذلك الشعور طوال اليوم حتى بعد انتهاء المدرسة .. وعندما أخبرني الوكيل في اليوم التالي أن الأوراق ضاعت منه، بعد أن تدخل لفض مشاجرة بين بعض الطلاب في الساحة، شعرت ببعض الراحة، ولم تعاودني الرغبة في التوقيع على قرار جديد بفصل الطالب .. وعندما أمرت بفصله نهائيا بعدها بعدة أيام أثر شجاره مع أحد المعلمين، وأوكلت للأخصائي تنفيذ القرار، تعرض المسكين لحادث بعد أن زلت قدماه على الدرج ليغيب عن المدرسة لمدة طويلة .. ثم انهار فجأة جزء من جدار المدرسة القديم بعدها بيومين لانشغل بالأمر وأتنفس ارتياحا لعدم وقوع إصابات بين الطلاب، وأتلقى مكالمات كثيرة من الوزارة فأنسى في خضم ما حدث توقيع قرار فصل الطالب بعد أن كسر زجاج المقصف .. المرة الأخيرة التي حاولت فيها فصل الطالب، كانت بعدها بثلاثة أيام، وانتهى الأمر بكارثة، بعد أن شب حريق في مكتب الوكيل بسبب سيجارة تركها ولي أمر طالب هناك، رغم قراري بمنع التدخين في المدرسة، ويبدو أن وكيل المدرسة تملكه الحرج من ولي الأمر وقتها، لينتهي الأمر بكارثة، ويفلت الطالب مجددا من العقاب

تلاشت إذن الرغبة لدي في عقاب الطالب، لم يتبق سوى أقل من شهر على انتهاء الدراسة على أي حال، وبنهاية العام سنتخلص من مشاكله بعد أن ينتقل إلى المرحلة الثانوية .. طلبت من المعلمين ضرورة الصبر عليه، رغم شكواهم المستمرة والمريرة من سوء سلوكه .. تحدثت معه عدة مرات، وفي كل مرة يتبين لي

مدى ذكائه، لكنه كما يقولون عنيد كالبغل، متهور كثيراً، يفقد أعصابه بسهولة، ولا يبال بأي قواعد .. قمت بفصله مؤقتاً من المدرسة حتى نرتاح من مشاكله ولو لعدة أيام .. وعند نهاية العام، تنفسنا كلنا الصعداء

لم أرى الطالب طوال فترة الامتحانات، حيث يتم اختبار الطلاب في المراحل النهائية في مدرسة أخرى، لم أره سوى بعد يومين من إعلان النتيجة، جاء إلى المدرسة لتفقد نتيجته بصحبة والدته، والتي انشغلت بسحب ملف الطالب تمهيداً لنقله إلى مدرسة أخرى .. تفاجئت به في مكتبي، تلك المرة لم يأت مذنباً بصحبة الوكيل أو الاخصائي، جاء متطوعاً وعلى شفتيه ابتسامة جميلة ... بدا هادئاً على غير العادة، ورصيناً للغاية .. رحبت به، طلبت منه الجلوس، ففعل دون كلام، تردد لثوان، ثم بدأ يعتذر عن تصرفاته، لأول مرة يعتذر عن تصرف قام به .. اعتذر بلهجة صادقة تماماً عن كل هفواته، استشعرت في كلامه بندم حقيقي، أخبرني أنه لا يحب المشاكل، ولكنه يفقد أعصابه بسهولة، ويقدم على تصرفات حمقاء دون تفكير ليندم عليها لاحقاً .. شكرني لدعمي السابق طوال العام، وعدم فصله بشكل نهائي من المدرسة رغم كل المشاغبات التي قام بها، لم تكن مدرسة جديدة لتقبله وقتها إن فعلت، ودخل أسرته لا يسمح له بالالتحاق بمدرسة خاصة، وهو ما كان ليعرض مستقبله للخطر .. كان وجهه يكتسي بالألم الحقيقي وهو يتكلم، تملكتني مشاعر متضاربة نحوه وعجزت عن الرد .. نهض ليصافحني قبل انصرافه، رن هاتف المدرسة، طلب مني الوكيل بعض البيانات العاجلة، طلبت من الطالب أن يناولني ملف من خزانة الأوراق

خلف مكتبي، ناولني الملف سريعاً، انهيت المكالمة بعد دقائق وتطلعت للطالب الذي تسمر في مكانه

لاحظت أنه يحدق في صورة ما باهتمام شديد، كان ما زال بجوار خزانة الأوراق، تطلعت لأرى فيما يحدق .. كنت أحتفظ ببعض الصور القديمة، أعلقها على الجدار خلف مكتبي بجوار النافذة مباشرة، بعضها صور قديمة للغاية ترجع إلى أيام تواجدي كطالب في المدرسة، كل صورة لها ذكرى أعتز بها .. عندما انتبه الطالب، أشار إلى صورة ما على الحائط وسط مجموعة الصور، وهو يصيح بعفوية:

- هذا جدي!

لم أفهم في البداية .. اقتربت من الصورة التي يشير إليها، كانت واحدة من أقدم الصور لي في المدرسة، التقطت في أول سنة عملت بها هنا، وما زلت أحتفظ بها؛ عادة نلتقط صور كتلك في نهاية كل عام دراسي، تقليد جميل نحافظ عليه في مدرستنا من فترة طويلة .. في الصورة يظهر معظم زملائي من المعلمين، كلهم غادروا المدرسة لأسباب عدة، بعضهم ترقى أو انتقل إلى مدارس أخرى، وبخاصة للمرحلة الثانوية بعد أن تقلصت المدرسة لتقتصر على المرحلة الإعدادية فقط، وعدد آخر منهم بلغ سن المعاش، كما يظهر عدد من العاملين في المدرسة، وكل طاقم إدارة المدرسة القديم .. أشار الطالب إلى رجل يتوسط الصورة، انعكس ضوء الشمس على زجاج الصورة فلم أرى جيداً، أسدلت الستار قليلا، اقتربت أكثر، دققت النظر، تفاجئت به يشير إلى الأستاذ عبد المحسن، ناظر المدرسة وقتها والذي يقف مع الوكيل وسط الحشد

تماماً، ويبتسم للكاميرا بتحفظ .. لوهلة لم أتكلم، ثم سألته بدهشة لم أخفيها:

- الأستاذ عبدالمحسن؟

- نعم، جدي الراحل .. على الأقل كما أتذكره من صوره في منزلنا .. أمي كانت تقص على كثير من الحكايات عنه .. تقول أنه كان ناظر المدرسة هنا، أخبرتني بذلك عندما انتقلت إلى المدرسة في بداية العام، لكني لم أصدقها وقتها، كنت أظنها تكذب علي لتدفعني إلى الاهتمام بالدراسة .. كما أني سألت كثير من المعلمين عنه، دون أن يعرفه أحد

تطلعت للولد دون تعليق، معظم طاقم المدرسة الحالي لم يعمل بالفعل مع الأستاذ عبدالمحسن، وربما لم يسمع أحد منهم عنه .. لوهلة لم أتكلم .. لا أدري لما بدأت فجأة أستعيد في ذاكرتي كل ما حدث طوال العام .. شردت قليلا كما يبدو، وقبل أن أفيق، أكمل هو:

- هناك صورة له بنفس البذلة في منزلنا، لا أتذكر جدي سوى بشكل طفيف، لكنه كان يحبنا بشدة، وبخاصة أخي الأصغر، حسن، ربما لأنه يشبهه كثيراً كما تؤكد أمي .. وتؤكد أيضا أنه كان يحب المدرسة هنا كثيرا

تطلعت للصورة طويلا ثم للطالب .. انتابني هاجس سخيف دون وعي أقشعر له جسدي وأنا أستعيد بعض ما حدث .. لم أرد، لم أستطع أن أتكلم في الواقع، عدت للجلوس على مقعدي دون وعي، أكمل هو:

- بالمناسبة، سيلتحق حسن أخي الأصغر بالمدرسة هنا العام القادم بعد أن أنهى دراسته الابتدائية .. ستلحظ كم يشبه جدي حقا .. حسن ذكي لكنه عنيد حقا، ربما أكثر عناداً مني، ومشاغب كذلك .. لكني أثق أنه سيحب المكان هنا كثيرا، وأنه سيقضي ثلاث سنوات رائعة بينكم

الأمين

خرج من منزله متجها للعمل .. سار في الحارة بخطى بطيئة .. رفع يده بتكاسل يرد التحية لكل من ألقاها عليه .. اقترب من المقهى فتلقى تحية البعض .. اندفع بعض الجالسين لدعوته ولكنه تهرب بحجة تأخره عن العمل .. بمجرد أن لمحه صاحب المقهى والذي كان يقبع في ركنه المعتاد خلف مكتبه الخشبي القصير يدخن شيشته بتراخ لذيذ، حتى ترك الشيشة منطلقاً نحوه .. أصر على دعوته لكوب من الشاي، حاول أن يتملص منه ولكنه ألح .. لم يجد في النهاية بداً من الإذعان لرغبته .. طلب المعلم سريعاً من صبي المقهى إعداد كوب الشاي الثقيل الذى يفضله الأمين عبد الهادي بالإضافة إلى شيشته المعتادة .. جلس الأمين قرب التلفاز كعادته وتجاذب حديث ودي لنصف ساعة مع صاحب المقهى .. استغرق تماماً في الحديث الذي لم يقطعه سوى نداءه المستمر كل فترة على صبي المقهى لتغيير "حجر الشيشة" .. أنهى كوب الشاي الثاني، انتبه فجأة فتطلع إلى ساعته .. تأخر عن عمله قليلاً .. نهض من مكانه بتثاقل .. وقعت عيناه على السلك الممتد بين عمود الإنارة والمقهى .. قطب جبينه على الفور .. تملكه غضب مفاجئ لكنه نجح في كبح جماحه بصعوبة .. نهض صاحب المقهى معه، دعاه لحجر آخر ولكنه رفض بحسم .. يسرق الكهرباء كعادته، عليه الإبلاغ عن الأمر على الفور .. مد يده ليسدد الحساب أولا، ولكن صاحب المقهى أقسم مغلظاً أن لا يفعل .. رفض الأمين في البداية بحسم ولكن صاحب المقهى ألح بشدة حتى أنه أقسم بتطليق زوجته الوحيدة وأم عياله إن فعل .. تجادلا لدقائق، لكن مع إلحاح

صاحب المقهى لم يجد في النهاية بداً من التراجع .. أعاد النقود داخل جيبه مرة أخرى باستسلام وهو ما زال يجادله .. صافح المعلم ببعض الود قبل أن يغادر .. تلاشت ملامح الغضب التي ارتسمت على وجهه تدريجياً وهو يخطو للخارج .. أحكم ارتداء قبعته الرسمية قبل أن ينطلق سريعاً وهو يلقي تحية عابرة على عدد من رواد المقهي ممن يعرفهم ..

****

مر على مطعم عباس .. سبقته رائحة الفول والفلافل اللذيذة قبل أن ينعطف إليه مباشرة .. بمجرد أن رآه عباس حتى أهمل زبائنه المتزاحمين حوله ليندفع تجاهه .. صافحه بحرارة وهو يجذب ذراعه بعشم تجاه المعطم داعياً إياه أن يفطر عنده .. حاول التملص منه بلا جدوى .. تطلع إلى ساعته بقلق، ما زال أمامه متسع من الوقت، كما أنه بدأ يشعر بوطأة الجوع بعد أن أهاجت رائحة الطعام معدته خاصة أنه خرج دون أن يتناول أي طعام، وساعد الشاي والدخان على تفاقم إحساسه بالجوع .. دلف إلى الداخل وعباس يواصل الترحيب به .. نظف عباس بنفسه أحد المقاعد بيديه وأسرع بالنداء على صبيه لتجهيز إفطار الأمين المعهود .. لحظات وأقبل الصبي وهو يحمل صينية كبيرة يحفظ توازن جسده الضئيل تحت ثقلها بصعوبة .. ساعد الأمين الصبي وهو يضع الصينية على الطاولة أمامه، طلب بعض الخبز الإضافي وكوب من الماء البارد .. تطلع بنهم إلى الفول الساخن وأقراص الفلافل الشهية .. التهم الطعام ببطء وتلذذ .. انتهى فاتجه للخارج وهو يشعر بثقل الطعام .. عباس ما زال منهمكاً مع زبائنه بعد أن بدأ أهالي الحارة في تزاحمهم الصباحي المألوف حوله ..

سرت الدماء في عروقه بعد أن أمتلئت معدته .. تذكر في تلك اللحظة شيئاً ما .. لعن ذاكرته الهشة التى بدأت تخونه كثيراً مؤخراً .. أحد مفتشي الصحة حرر محضراً لعباس من يومين بعد أن اكتشف انتهاء صلاحية الزيت الذى يستخدمه، أصدر أمراً بإغلاق المحل ولكن عباس عاود فتحه مجدداً وكأن شيئاً لم يكن .. قطب حاجبيه في غضب مفاجئ .. اتجه نحو عباس بخطى سريعة .. ما أن رآه حتى توقف عن توزيع الطعام على الأيادي الممتدة حوله .. أخرج الأمين محفظته لدفع الحساب أولاً، بمجرد أن لمحه عباس يعبث في جيوبه حتى مسح يده في طرف المريلة المتسخة التى تلتف بإحكام حول وسطه ليمنعه .. أقسم عليه أن لا يفعل .. زمجر الأمين وهو يحاول إخراج النقود لدفع الحساب، ولكن عباس أصر .. استمر النقاش بينهما لدقيقتين .. تعالت صيحات بعض المنتظرين الغاضبين .. تطلع الأمين بتأفف إلى الجمع الحانق الذى يترقب عودة عباس خلف عربة الفول المزدحمة .. لم يجد بداً من الخضوع لرغبته .. أعاد محفظته إلى جيبه وهو يشكر عباس .. تبادل معه قليل من المزاح وسط استياء الجمع المتزايد قبل أن يتوجه للخارج سريعاً ..

****

في طريقه توقف عند كشك السجائر الصغير الخاص بعم ربيع والذى يقبع على ناصية الحارة .. طلب علبة سجائر كعادته .. نظر بحنق إلى الكشك المتهالك الذى يحتل مكانه دون ترخيص .. دفع لعم ربيع الكهل بثمن علبة السجائر، ولكن العجوز أصر على رفض تحصيل أى نقود منه .. صمم الأمين أن يدفع، تجادل طويلاً مع عم ربيع الذى أرهقته المجادلة فبدأ يسعل بقوة .. أمام إلحاح

الرجل السبعيني أعاد النقود لمحفظته إشفاقاً فقط على صحة العجوز، وخوفاً من أزمة قلبية قد تعاوده مجدداً .. انصرف مهرولاً باتجاه نهاية الحارة وهو يشعل سيجارة سريعاً من العلبة الجديدة قبل أن ينفث دخانها بشراهة

****

لم يكد يمضي بضع خطوات خارج الحارة حتى تناهى إلى سمعه أصوات ضجة عالية .. انعطف ليشرف ببصره على مخبز محمود الأدهم .. لمح طابور من الناس يتزاحم أمام المخبز وقد تشاجر اثنان منهما .. لا وقت لديه لفض مشاجرة سخيفة كتلك .. تذكر في تلك اللحظة أن الخبز نفد من منزله .. دلف داخل المخبز من بابه الخلفي تحت أنظار المتزاحمين .. استقبله المعلم محمود بحرارة .. تبادل معه حديث ودي لدقائق .. طلب منه إرسال بعض الخبز إلى منزله مع أحد صبيانه كالعادة .. هم بإخراج نقوده، لكن صاحب المخبز صمم أن لا يدفع .. لم يجادله طويلاً .. تأخر بالفعل عن العمل ولا وقت لديه لنقاش قد يعطله

خرج من الباب الخلفي .. لمح عربة نقل صغيرة تستقر بجوار الباب .. وعدد من العمال ينقلون بعض أجولة الدقيق إليها من المخبز .. يبدو أن المعلم محمود يهرب الدقيق المدعوم لبيعه في السوق السوداء كما سمع مراراً .. ذلك اللعين .. هز رأسه حانقا .. توقف لبرهة مفكراً، نظر لساعته، لم يعد هناك وقت .. تحرك مرة أخرى وهو يلعن ضيق الوقت والمعلم محمود

****

خارج الحارة وقبل أن يصل للميدان الكبير ليستقل الحافلة، سمع نفير سيارة مزعج خلفه .. تكرر النفير عدة مرات بشكل استفزه .. التفت بغضب شديد ليتفاجئ بأحدهم يناديه باسمه

ابتسم وهو يرى سعد سائق التاكسي الذى توقف فور رؤيته .. ترجل سعد من سيارته باحترام ليصافحه .. أصر على أن يركب معه .. امتنع الأمين قائلاً أنه سيستقل الحافلة كالعادة ولكن سعد أصر أن لا يمضي إلا بصحبته .. الطريق مزدحم كالعادة، واستغل ذلك سعد فاندفع في ثرثرة طويلة بلا توقف .. استمع له بصبر وهو يتطلع من وقت لآخر إلى ساعته .. في الطريق كاد سعد أن يصدم شاحنة بعد أن انشغل بالرد على هاتفه المحمول .. هز رأسه بغضب وهو يسمع كلمات السباب تنهال من سائق الشاحنة على سعد .. سعد متهور بلا شك .. ربما لهذا سحبت رخصته أكثر من مرة .. وآخرها الأسبوع الماضي .. كيف يعود لقيادة التاكسي دون رخصة .. تطلع إليه بغضب كاتماً احتجاجه بصعوبة .. بمجرد أن وصل أمام قسم الشرطة حتى ترجل من السيارة مسرعاً .. هم بالدفع، ولكن سعد أبى أن يتناول منه أى نقود متعللاً بأنه كان في طريقه لشارع قريب بالفعل .. حاول أكثر من مرة ولكن سعد واصل الرفض بحسم .. لم يعد هناك وقت .. لم ينسى أن يشكر سعد الذى انطلق مرة أخرى ليتوقف بعد عدة أمتار فقط في وسط الشارع تماما ليعطل المرور بعد أن أشار إليه زبون ما ..

****

انتصف النهار، ما أن سمع النداء المميز لسعيد ماسح الأحذية حتى نادى عليه بصوت عال .. طلب منه مسح الحذاء بلهجة جافة،

تقرفص سعيد أمامه، انطلق في الثرثرة وهو يقوم بعمله بحماس .. لا ينكر الأمين أن سعيد يتمتع بخفة ظل ملحوظة، ولكنه تذكر أوامر المأمور بمنع دخول الباعة الجائلين للقسم بعد توالي مشاكلهم، عليه أن يطرده من القسم ولو بالقوة وفقاً للأوامر .. انتهى سعيد، رن جرس التليفون فأسرع بالرد، بمجرد أن أنهى المكالمة حتى التفت ليحاسب سعيد ولكنه تفاجئ بغيابه التام .. اختفى فجأة .. ربما انطلق للطابق الأعلى .. ابتسم وهو يتذكر آخر نكتة قالها .. أعاد وضع النقود داخل جيبه .. سيحاسبه لاحقاً عندما يراه على أي حال

****

عند عودته من العمل قابل مسعد في الطريق والذي طلب محادثته في أمر هام .. لم يخفي دهشته؛ مسعد جاره من فترة طويلة لكنه لم يطلب محادثته من قبل في أي أمور خاصة، لم يفكر طويلاً على أي حال وهو يحدد له موعداً بعد صلاة العشاء في منزله ..

في الموعد المحدد توجه مسعد للقاء الأمين في منزله، لم تكد تمضي بضع دقائق حتى أفاق أهالي الحارة على صراخ الأمين وهو يوجه سيل من الشتائم لمسعد، أعقبه خروج مسعد من منزل الأمين شاحب الوجه يجفف عرقه الغزير، مطروداً كما يبدو، قبل أن يلحق به الأمين ثائراً بعدها بلحظات محاولاً الاشتباك معه

توقفت الحركة تماماً في الحارة لبضع دقائق، تقول الشائعات أن الأمين استقبل مسعد برحابة صدر في البداية، وأن مسعد بعد التمهيد اللائق طلب بود زيارة أخيه الطالب الجامعي الذي احتجزته الشرطة من عدة أيام بعد مظاهرة شارك فيها دون توجيه

أى اتهام له، طلب مسعد رؤيته فقط وربما تزويده ببعض الطعام والملابس، لم يرد الأمين على طلب مسعد في الحال .. سكت تماماً للحظات، ربما ليفكر في الأمر .. ولكن يبدو أن مسعد أساء تفسير صمت الأمين .. اندهش الأمين عندما أخرج مسعد "مظروف صغير" بحرص شديد من داخل جيبه ليضعه أمامه، فتح الأمين المظروف، لتثور ثائرته على الفور بمجرد رؤيته للنقود المتراكمة داخل المظروف .. لم يستطع أن يتمالك أعصابه، انفعل بشدة دون وعي فارتفع صوته وهو يكيل السباب لمسعد وأخيه وعائلته بأكملها بغضب أعمى .. قبل أن يندفع بتهور تجاه مسعد طارداً إياه من البيت، ومحاولاً الاعتداء عليه لاحقاً

لم يرى أهل الحارة الأمين ثائراً من قبل بتلك الصورة .. كادت الأمور أن تتطور إلى ما لا يحمد عقباه بينهما .. ولولا تدخل الأهالي ربما بات مسعد مع أخيه في الحجز بتهمة الرشوة، أو في المستشفى بعد أن أقسم الأمين على قتله

إلى اليوم لم تمحى تلك الحادثة من ذاكرة أهل الحارة، الذين يؤكدون علنا في كل مناسبة على نزاهة الأمين ونقاء ذمته .. وما زال الأمين يمشى كعادته مرفوع الرأس، متباهياً ومتفاخراً دون تكلف، مقسماً في كل مناسبة وبلهجة صادقة تماماً بأنه يده طاهرة ولم تمس أي أموال حرام من قبل، ليشهد أهل الحارة بصحة كلامه، مشيدين دوما دون نفاق أو مجاملة .. بنقاء يده التى لم تدنسها حقا أي أموال حرام من قبل

قصة حب مثالية

كانت قصة حبهما جميلة وتقليدية للغاية .. وانتهت بنهاية تقليدية؛ الانفصال

لم يكن من السهل أن يستمرا فى تجاهل الفوارق بينهما .. والاندماج فى حياة واحدة يرفضها الواقع

ورغم توقعه للرفض وإدراكها تماماً لصعوبة الأمر، إلا أن الصدمة كانت مؤلمة بالنسبة له، وأكثر مرارة مما تتخيل

توقعت أن يصمد حبهما مع الزمن، ولكنه تلاشى فى أول اختبار واقعي له مع عالم يحكمه المنطق وحده لا الخيال

تعرف عليها في بداية سنوات دراسته الجامعية .. طالب يتحسس طريقه نحو حياة جديدة لا يأمل سوى أن تكون أفضل من نلك التى طالما شهدها وتذوق مرارتها داخل قريته الفقيرة

لم تلفت نظره عندما قابلها للمرة الأولى، ولم تنتبه هي لوجوده .. عام كامل مر دون ولادة أي مشاعر بينهما .. حتى جمعهما القدر في أحد المشاريع العملية التى تحتم عليهما التعاون مع بداية عامهما الجامعي الثاني .. تبادلا بضع كلمات يشوبها حذر التعارف الأول .. زادت تدريجياً بعد أن اكتشفت لاحقاً أنها تشعر بانجذاب غامض نحوه، بل وينتابها شعور خاص بالارتياح لا تعرف مصدره كل مرة تحادثه .. فتحت له قلبها .. ولم يخجل من تواضع حاله أمامها، أو يخفي ذلك كما يفعل مع كل من حوله .. تطورت

العلاقة سريعاً من الانجذاب، إلى التعلق، ثم الشعور بعدم الراحة عندما يفتقد أحدهما الآخر .. بدأ كل منهما يدمن وجود الآخر فى حياته، ويشعر بنقص لا يعوض لغيابه .. بضعة أشهر لاحقة كانت كافية ليتأكدا من حقيقة مشاعرهما، لتبدأ صفحة جديدة ظنا أنها الأفضل فى حياة كل منهما ..

أتفقا أن يجابها العالم معاً .. تعاهدا على أن لا يفرق بينهما أي عائق ..

ولكن رومانسية أحلامهما الساذجة انهارت بشكل أسرع من المتوقع أمام واقعية الحياة ..

جمالها و فتنتها لفتت إليها الأنظار مبكراً، لكنها بعناد تام ولسنوات رفضت كل من تقدم إليها .. صبرت عامين بعد التخرج حتى نال حبيبها أول ترقية في وظيفته الصغيرة التى تحصل عليها بمساعدتها .. اجتهد فقط كي يكون جديراً بها، عمل ليلاً ونهاراً دون كلل لا يحركه سوى عشقها .. شجعته أخيراً على التقدم لأبيها .. أصرت أن يخرج حبهما للنور .. ولكن رفض أبيها الصادم أجهض كل أحلامهما مبكراً ..

لم تصغ إليه .. كان أكثر عقلانية .. ربما لأن تجارب الحياة القاسية عركته أكثر منها .. توقع أن يقابل طلبه بالرفض .. طلب منها التفكير قبل الإقدام على خطوة غير مأمونة العواقب كتلك .. لكنها بلا تفكير رفضت ضعفه وسلبيته .. أرادت فقط أن يكتسب حبهما الشرعية أمام الناس .. تفاؤلها كان كبيراً، أكبر من اللازم .. طغى على صوت العقل لديها كما اكتشفت متأخرة ..

لم تستسلم رغم ذلك .. لم تخضع لليأس الذى أصاب حبيبها، ولم تسمح لبوادره أن تتسلل إليها .. رفضت تعنت والدها، ومحاولته فرض سطوة أبوية تراها جائرة على مشاعرهما .. لأشهر طويلة استمر عنادها، خاصمت أهلها، وتمادت فى رفض كل من خطب ودها بقسوة لم تظن يوماً أنها تمتلكها، تعاهدت أن تكون له، وظنت أنها ستنتصر فى النهاية

لم تفق إلا على خبر سفره الصادم للخارج .. اتصل بها قبل سفره فى محاولة لتبرير قراره المفاجئ

- لم يعد بى طاقة لمجاراة الواقع .. ولن أتحمل البقاء فى مدينة يذكرني كل ركن فيها بعجزي عن تحقيق أبسط أحلامنا ..

نبرات صوته كانت تشي بألمه؛ ليس أصعب على الرجل من الاعتراف بالعجز أمام من يحبها، وهو يعشقها حقا لكنه يدرك أن الواقع بعانده .. طلب منها بحزم أن لا تنتظره، أن تواصل حياتها وكأنهما لم يلتقيا يوماً .. لكنها رفضت استسلامه المفاجئ .. تمسكت بالأمل أكثر رغم سفره بعيدا عنها، توقعت أن يعود الطائر إلى عشها مرة أخرى أكثر قوة بمجرد أن يقف على قدميه ويطرق النجاح بابه .. انتظرت طويلاً، أطول من اللازم .. ولكن ثلاث سنوات ثقيلة كانت كافية كي تنهار مقاومتها ..

لم يعد من المنطقى استمرارها فى ترقب فرص عودته التي تتضاءل عاما بعد آخر، ولن تنتظر إلى أن تسقط كل أوراقها كأمرأة فى سبيل حلم أقرب للخيال قد لا يتحقق .. تزوجت أول من طرق أبوابها بعد محنتها .. زميل فى العمل تقدم إليها للمرة الثانية .. لم تعد تمتلك أي مبرر تحاول أن تقنع نفسها به للرفض ..

تزوجته وهي تظن أنها قد تنسى عشقها القديم مع شخص آخر أكثر قرباً يشاركها الحياة والمستقبل .. اقترنت به وصورة حبيبها الأول لم تسقط بعد من ذاكرتها، على أمل أن تبدأ حياة جديدة تساعدها على نسيانه ..

لكن انتابها الندم سريعاً .. لم تفلح الأيام فى تبرئتها من حبها القديم، ولم تحاول هي جاهدة أن تنزع قيوده لتنطلق فى حياة أخرى مختلفة .. فشلت تماماً في التعايش مع واقعها الجديد بذاكرة مختلفة وقلب خال من آثار الماضي

لم تستطع أن تستمر طويلاً فى محاولة فاشلة لكبت مشاعرها الحقيقية

وجدت نفسها تحيا بين عالمين، جاهدت أن توازن بينهما فأختل توازنها فى النهاية .. انهارت .. ليس بشكل مفاجئ .. ولكن تدريجياً بدأ جدار الصمود لديها يتداعى .. فقدت رغبتها فى مواصلة حياة تدرك تماماً مدى عبثيتها في غياب حبيبها، وفقدت رونقها تحت وطأة أيام لم تأت معها بالنسيان كما تأمل

تلاشت رغبتها فى الحياة، لم يعد لديها أمل تحيا لأجله، أو هدف تسعى إليه بعد أن خسرت قلبها .. تصدع زواجها فلم تأبه .. واستمر التصدع ليطول كل مناحي حياتها، فشاهدتها تتهاوى عاجزة أن تتدخل ..

غرقت فى دوامة يأس لم تستطع الهرب منها .. لفترة أدمنت الأقراص المنومة، وزيارات الأطباء النفسيين لعلها تجد مخرجاً فزادت محاولاتها من تعاستها .. فقدت اهتمامها بالعالم، ثم بنفسها

فأهملتها تدريجياً، وشيدت حولها أسواراً من العزلة بإرادتها تمنعها من الاختلاط بالناس

انتبهت يوماً لتقرر أن تثور على ما وصلت إليه، أن تبدأ حياة جديدة .. عزمت أن تمضى قدماً دون أن تلتفت للماضي .. نجحت لبضعة أيام .. ثم أسابيع .. لكن ثورتها لم تستمر .. وعادت تشد خيوطاً جديدة أكثر قوة بالماضي

عشر سنوات كاملة بعد انفصالهما وهي تعاني .. عرف المرض طريقه إليها مبكراً فرحبت به دون مقاومة .. خسرت معظم المقربين منها .. لم تعتد تهتم بعملها أو مظهرها، وتجاهلت تعليقات الناس عليها .. فقدت الزوج دون أسف .. وقبله تعاطف عائلتها مع محنتها التى تبدو بلا حل دون أن تبال أو تتوقف لتعيد حساباتها

رغم آلامها لم تتوقف يوماً عن متابعة أخباره .. سمعت أنه عاد أخيراً من الغربة بنجاح مبهر .. وزوجة وابنان .. تلقت الصدمة بهدوء على غير المعتاد .. توقعت ذلك على أي حال .. يبدو أنه مل الانتظار هو الآخر خاصة بعد أن وصلت إليه أنباء زواجها ..

لم تعد تتمنى حقا سوى أن يجمعها القدر ولو للحظة .. أن تضم يدها إلى يده كما اعتادت، وتستشعر دفء تلك اللحظات مرة أخرى .. رغم سهولة لقائه بعد عودته من السفر، لكنها تدرك أنها لا تمتلك الجرأة لفعل ذلك .. شئ ما يمنعها؛ ربما الخوف من تجدد جراحها القديمة مرة أخرى، وبصورة أكثر قسوة .. وربما اندمج هو بكل مشاعره مع أجواء حياته الأسرية الجديدة، ولم يعد هناك متسع في حياته لذكريات ماضي انتهى .. لفترة وقعت فريسة

للتردد، وزاد شعورها بالعجز لوجود تلك المسافات الواهية بينها وبينه والتي لا تستطيع تجاوزها رغم ذلك .. أحياناً تستسلم للمنطق، لا فائدة من عودتها المتأخرة إليه .. والأهم؛ ما ذنب أسرته، ربما وجد السعادة أخيراً بينهم ومعهم .. فقدت حياتها بالفعل، فما الداعي لتعكير صفو حياته هو الآخر .. وأحياناً تتملكها الثورة .. تلعن سلبيتها وافتراضها للأسوأ .. ربما يشتاق للقائها هو الآخر .. كما أنها على يقين أنه لن ينساها بتلك السهولة .. مستحيل أن يفعل .. لم تكن مشاعرهما نزوة عابرة تجرفها سريعا تعاقب الأيام لكن عشق حقيقي خلق حقا ليصمد .. يكاد التفكير في الأمر يدفعها للجنون، تستشعر رغبة قوية في مقابلته، وترغب في الابتعاد عنه بالقدر نفسه .. سمحت لصوت القلب لديها لمرة أن يطغى على صوت العقل فندمت، وتخشى بشدة من تكرار التجربة .. وجدت نفسها وسط صراع نفسي عنيف يمزقها، صراع أقوى من قدرتها على مقاومته، أو حسمه بسهولة فساءت معه حالتها أكثر ..

- انظر .. تلك المرأة هناك .. أليست هي هند .. حبيبتك السابقة؟

تطلع يوسف إلى حيث يشير صديقه محسن .. للوهلة الأولى لم يتعرف عليها .. تغير شكلها كثيراً عن صورتها القديمة المحفوظة في ذاكرته فلم يميزها إلا بصعوبة .. قبل أن ينطق بأي كلمة عاجله صديقه مواصلاً كلامه:

- يقولون أنها مجنونة .. زوجها طلقها من فترة طويلة بعد أن انتابه اليأس من علاجها .. وعائلتها تحاول إخفاء فضائحها دون جدوى

لاحظ يوسف جسدها المترهل .. وعيناها الذابلتان وخطوط الزمن المبكرة التي زحفت على وجهها فأكسبتها سنوات إضافية فوق سنوات عمرها الحقيقي .. تطلع إليها وقد تملكته لوهلة مشاعر متضاربة .. اقتربت منه دون أن تنتبه إليه .. تغيرت كثيراً حقا .. لم تعد أنيقة كالسابق .. تمشى بخطى ثقيلة متعبة تحت وطأة ثقل جسدها، وتجرجر قدميها وهي تحمل عدد من الأغراض .. مرت بجانبه دون أن تلحظه، ليشهد بوضوح الهالات السوداء تحت عينيها، وشعرها الذي ضربه الإهمال فلم تهتم بتصفيفه .. أطرق للأرض بحسرة .. كم كانت أنيقة وجميلة للغاية، وكم كان حبهما مثاليا حقا.. حب لا يتكرر .. شرد لبرهة وهو يفكر دون وعي في زوجته قبل أن يعود للتطلع إليها وهي تبتعد .. استعاد كلمات صديقه .. فكر لبرهة، هز رأسه بعدها دون تصديق وكأنه يفيق من حلم ما .. اعتدل في كرسيه، قبل أن يتمتم لنفسه وهو يتنهد بارتياح:

- من حسن الحظ حقا أني لم أتزوجها

موعد جيد

لا أتذكر متى بدأت تلك الأفكار تلازمني، وأؤمن حقا بتلك المعتقدات

ربما من الصغر

كنا في طريقنا للمنزل بعد المدرسة، التقطنا بعض الحصى وبدأنا نقذف النخلة القريبة من الساقية أملا في الحصول على بعض ثمارها اللذيذة، التقطت حدوة حصان، ثم رميتها بعيدا دون اهتمام، بحثت عن حصى أخف فالنخلة عالية، إلا أن أحد زملائي التقط الحدوة سريعا، مؤكدا أنها تجلب الحظ الجيد كما سمع جدته تقول .. لم أهتم .. تشاجرت معه لاحقا في طريقنا للمنزل لأقرر انتقاما منه الحصول على حدوة الحصان بحجة أني أول من عثر عليها، لاحتفظ بها في حقيبتي

في اليوم التالي في المدرسة، تفاجئت بنجاحي في امتحان الرياضيات، رغم توقعي الرسوب لأني لم أكن بكامل تركيزي يوم الامتحان .. ونجوت من العقاب في حصة الدين لعدم حفظي للآيات المقررة بعد أن استدعى الناظر المعلم فجأة .. وتم اختياري ضمن الشرطة المدرسية أخيرا، مما سمح لي بفرض بعض السطوة على زملائي

وفي الصباح التالي عندما خرجت متجها للمدرسة لأتفاجئ بوجود طائر ميت على عتبة منزلنا، لم أولي الأمر اهتماما .. لكني تعرضت للفصل المؤقت من المدرسة أثر شجار مع أعز

أصدقائي، وتمزق قميصي الجديد الذي أهداه لي أبي للتو .. وتعرضت لعقاب مؤلم داخل المدرسة، وفي المنزل من أبي بسبب ما حدث

وعندما مرضت فجأة بعد أن فزت بجائزة رياضية وتم تكريمي في المدرسة

أكدت أمي وقتها أني تعرضت للحسد

لتبدأ تلك الأفكار والمعتقدات تترسخ داخل ذهني، وتكتسب ثقلا لدي كل يوم، خاصة أن جدتي وأمي تؤمنان بها بشدة .. وتدريجيا باتت تتحكم في حياتي

لا أرتدي أبدا اللون الأسود ليلا .. ولا أخرج يوم ١٣ إلا للضرورة .. واستخدم البخور طوال الوقت داخل المنزل .. لا أمر تحت سلم تجنبا لسوء الطالع، وأضع خرزة زرقاء وكف يد نحاسي صغير على باب داري، بل أحرص على اقتناء حوض سمك داخل غرفتي يحوي بضع سمكات ذهبية .. حرصت على شراء رمز الحياة الفرعوني لأضعه في سلسلة مفاتيحي .. وعندما ابتعت سيارة، قمت بتعليق زوج من النرد بداخلها يتدلى من مرآة السيارة ويظهر رقم سبعة

بدأت تدريجيا أخاف من أشياء لم أكن أخاف منها في السابق ..

البومة والغراب، والقطط والكلاب السوداء في الليل، ورؤية المشوهين .. ووضع المرآه مقابل الفراش والصفير في المساء .. وأتجنب بأي حال قص أظافري أو كنس المنزل ليلا

ثم وصل بي الحال للتشاؤم من أشياء عادية لمجرد تصادفها مع بعض الاحداث السيئة في حياتي، والعكس صحيح بالطبع ..

لم أعد أرتدي ذلك القميص الذي اشتريته بعد أن صدمتني سيارة وكادت تفقدني حياتي .. بل قررت التخلص منه سريعا .. وفي الجامعة، عندما قمت باستئجار غرفة، ورسبت في اليوم التالي في مادة هامة، لم أتردد في تغييرها على الفور مضحيا بالعربون الذي دفعته، وتحمل مشقة البحث عن غرفة جديدة والانتقال إلى مكان أبعد .. ولم أرسب بعدها أبدا

ولم أتخلى عن سيارتي القديمة رغم كثرة أعطالها؛ بعد أن تعرفت بسببها على خطيبتي، والتي تعطلت سيارتها أيضا لنذهب إلى الورشة نفسها ويبدأ التعارف بيننا هناك .. كما لاحظت أني أتعرض لمصائب كل مرة تتعطل السيارة وأتوجه للعمل دونها

بدأت أخاف أيضا من معظم الأرقام .. الثلاثة كالبوذيين، وأربعة كما يفعل بعض الآسيويين لتشابه نطقه مع كلمة موت في لغتهم، ورقم تسعة كاليابانيين، و١٧ كالإيطاليين، ٣٩ كما هو الحال لدى الأفغان .. ثم لاحقا الأرقام التي تحوي صفرا لأنه يوحي بالعدم والخواء كما أكد مقال قرأته .. ومعظم الأرقام الفردية لأنها تتصادف دوما مع أحداث سيئة في حياتي .. وأتفاءل بالمقابل دون سبب بأرقام سبعة وثمانية كما يفعل كثيرون

أتشاءم من يوم الأربعاء لأني خسرت أول وظيفة لي ذلك اليوم، والخميس لأنه اليوم الذي شهد وفاة أمي الحبيبة ثم أبي لاحقا، والجمعة لأن به ساعة نحس كما يؤكد البعض .. والسبت لأني استيقظ كثيرا مرهقا ذلك اليوم دون سبب

ولا أحب شهر فبراير والذي يمر ببطء شديد رغم أنه أقصر شهور السنة .. وأكتوبر حيث تعرضت لإصابة في غضروف الركبة أثر لعبي للكرة مع أصدقائي، وأجريت فيه جراحة فاشلة ما زلت أعاني من آثارها حتى الآن .. وأتشائم من شهر نوفمبر لأن ترتيبه ١١، وأنا لا أحب الأرقام المتشابهه بأي حال كما يفعل البعض

أرهقني الأمر مع مرور الوقت

بات لدي قائمة طويلة من المحاذير تتزايد تدريجيا حتى تكاد تعوقني عن الحياة

واليوم تغضب مني خطيبتي لأني أخلفت الذهاب إلى عقد قراننا .. لم يكن الأمر بيدي .. استيقظت ذلك الصباح على جانبي الأيسر على غير المعتاد، وطوال الليل كنت أعاني من رعشة في العين وحكة غريبة في اليد دون سبب .. وانقطعت الكهرباء طوال اليوم .. وفي المساء، بمجرد خروجي حتى تفاجئت بقط أسود يستقر على باب منزلي، مما ينذر بسوء الطالع .. وهو ما حدث فعلا وتخلت عني خطيبتي

وها أنا ذا أكسر مرآة غرفة النوم الكبيرة في لحظة غضب .. مما ينذر بسبع سنوات من الحظ السئ

بدأت حقا في اليوم التالي مباشرة بتحويلي إلى التحقيق في العمل بعد اكتشاف خطأ قديم تناسيته .. ورفض خطيبتي كل محاولات الصلح

يا إلهي

لم يعد لدي قدرة على احتمال تلك المعاناة

حاولت كثيرا التخلص من تلك المعتقدات والأفكار التي تزحم عقلي دون جدوى

لم يعد يمكنني الاستمرار في حياة تتزايد قيودها لدرجة تعجزني عن التصرف بحرية .. وتتحول معظم الأشياء البسيطة حولي إلى مصدر للتشاؤم أو الخوف الذي يشل حركتي

خسرت خطيبتي ومعظم أصدقائي والمقربين من عائلتي .. وها أنا ذا على وشك خسارة وظيفتي التي تحصلت عليها بصعوبة، والتي لا يمكنني تعويضها بسهولة

بات الوضع يزداد سوءا يوما عن يوم لدرجة تكاد تدفعني للجنون

كل تلك المعتقدات اللعينة تنغص علي حياتي، تقضي على راحتي، وأعجز حقا عن التخلص منها .. لم أعد قادر على تحمل سطوتها المتزايدة، والاستمرار بعد الآن في حياة تلازمني فيها كظلي، وتقيد عقلي وحريتي داخل سجن مخيف لا أمل في النجاة منه

ذلك اليوم، قررت وضع حد لمعاناتي التي تبدو بلا نهاية

تبدو أفاق مستقبلي مظلمة، ولا تحمل الأيام القادمة سوى مزيد من المعاناة، وتنذر بخسارات أخرى قد تكون أشد ألما

لم يعد هناك سبيل آخر

يبدو الموت، رغم خوفي منه، هو السبيل الوحيدة للنجاة

والتخلص من كل القيود التي تثقلني

كل ما علي فعله هو القفز من شرفة شقتي في الدور الثامن لتنتهي كل آلامي للأبد

عزمت أمري

لم يعد هناك مجال للتراجع

ارتديت أفضل ملابسي

فتحت باب الشرفة لتصدمني برودة الهواء على الفور .. لن يمنعني شئ

أقترب دون تردد من حافة الشرفة، أتطلع للمارة والسيارات وقد تضاءل حجمهم

أضع قدمي الأولى على حافة الشرفة، أتبعها بالثانية سريعا دون تفكير

يتلاعب الهواء بجسدي الضئيل دون أن أهتم

أخيرا أشعر بالراحة .. وينتابني سلام غاب عني من فترة طويلة

أغمض عيني وأرفع يدي وأعب من الهواء بحرية .. أتنفس سعادة في تلك اللحظة

أبتسم للحظة النجاة المرتقبة ..

اقترب خطوة أخرى من الحافة ..

أدع جسدي للهواء .. و ..

و ..

يا إلهي

اللعنة

تذكرت فجأة

اليوم السبت .. والساعة الآن تقترب من الواحدة ظهرا كما لم لمحت في طريقي للشرفة .. مما يعني ١٣ في التوقيت الممتد

لا يمكنني حقا مغادرة العالم يوم السبت وفي تلك الساعة النحس

يرتجف جسدي رغما عني لمجرد تخيل ذلك ..

أتراجع عن الحافة ..

ربما أؤجل الأمر قليلا .. فقط عدة ساعات للغد

لكن غدا الثلاثين من الشهر ..

وبعد غد يتصادف مع عيد الهالوين اللعين، سمعت كثير من الأمور المرعبة عن ذلك اليوم حقا

كما أننا في شهر أكتوبر

تنهدت ..

هبطت من حافة الشرفة بيأس

عدت إلى غرفتي سريعا وأنا أعصر ذهني للتفكير في توقيت آخر مناسب

يتصاعد حنقي وسخطي مع مرور الدقائق وأنا أحاول حقا دون جدوى

أزفر أنفاسي غاضبا في النهاية وأنا أكاد أشعر باليأس

لم أكن أعلم أن اختيار موعد جيد للموت يمكن أن يكون بتلك الدرجة من الصعوبة حقا

□أضواء

- هل يمكن أن تخبرنا قليلاً عن فيلمك الجديد؟

- الفيلم مأخوذ عن قصة حقيقية وأتقمص فيه شخصية صعبة أتمنى أن تكون مفاجأة للجمهور .. هذا كل ما يمكنني التصريح به

قالها الممثل سريعاً للمذيعة التى استوقفته قبل باب الأستوديو .. ثم انسحب دون مزيد من الكلام رغم فيض الأسئلة التي ألقتها عليه .. لم يشبع فضولها تماماً وسره أن يراها مستاءة لذلك .. استقبله مساعد المخرج بمجرد أن دلف إلى الأستديو وبيده نسخة من نص المشاهد التى عليه تصويرها اليوم .. توجه إلى الغرفة المكيفة الخاصة به وطلب من مساعد المخرج القراءة بصوت عال بينما انشغل تماماً بتفقد بضعة خطوط قاتمة ظهرت أسفل عينيه .. ما تبقى من آثار سهرة الأمس أو لعله الإفراط فى الشرب .. لم يكن ينوي السهر ولكنهم أقنعوه كالعادة .. وليعترف أن الحفلة كانت صاخبة وممتعة .. ابتسم وهو يستعيد بنشوة كيف قضى ليلته .. انتبه على مساعد المخرج وهو ما زال يواصل القراءة بلا توقف .. أشار إليه فالتزم الصمت على الفور .. طلب منه كوب من القهوة المركزة لعله يتخلص من الصداع العنيد الذي يفتك برأسه .. ثم أخرج علبة سجائره الأنيقة .. وجلس يدخن رغم لافتات منع التدخين القريبة منه وهو يعيد قراءة المشاهد دون اهتمام

ما زال ينتظر دوره فى الطابور .. لم يعد يحتمل ولكن يصعب عليه أن يرتفع صوته بالشكوى .. لم يعتاد ذلك من قبل حتى فى

أسوأ الظروف .. ربما بسبب حياة الجندية الطويلة التى عاشها .. حتى بعد أن شاب شعره ووهنت عظامه فلم تعد قادرة على حمله لكنه ما زال يأنف من الشكوى علنا بأي من أوجاعه .. نهرت الممرضة بصوت عال المتزاحمين أمام باب الوحدة الصحية القديمة بعد أن تشاجر اثنان منهما وعلا ضجيجهما .. بدأ العرق ينساب منه ولكنه حافظ على صمته .. قال لنفسه يواسيها " هانت " وهو ينظر إلى الطابور الطويل الذى أصبح فى مقدمته بعد ساعات من الانتظار

انتهى من ارتشاف قهوته الثانية .. ما زال معظم العاملين داخل الأستوديو فى انتظاره .. والمخرج يصرخ بغضب على كل من يقابله فى طريقه لينفث عن توتره، إلا على الممثل الذى حضر متأخراً وما زال بعد ساعة داخل غرفته يراجع النص .. أرسل المخرج مساعده للمرة الرابعة لاستعجاله فعاد شاحب الوجه بعد أن ألقى عليه الممثل سيل من السباب لقطع تركيزه كما زعم .. ابتلع المخرج غضبه وهو يتطلع لساعته بقلق .. أوشك النهار أن ينتصف دون أن يبدأ في التصوير .. أخيراً شعر بحركة فتطلع خلفه ليرى نجمه قادماً .. أشار سريعاً للعاملين بالاستعداد رغم أن المشهد معد من فترة .. اقترب من الممثل ملقياً بعض النصائح تقبلها دون مبالاة .. كتم المخرج غيظه وهو يعود إلى مكانه .. وقف الممثل تجاه الكاميرا التى أشار عليها المخرج .. اكتمل حضور باقى الممثلين .. ساد الصمت .. أشار المخرج أخيراً بنفاذ صبر لبدأ التصوير ..

أخيراً وصل إلى باب المركز الصحي .. يشعر بألم كبير فى ركبته ولكنه هنأ نفسه على الصمود .. فى الجيش من أربعين عاماً كان يقف لست ساعات كاملة وأحياناً لثمان دون أن يثني ساقه ولكنها أيام ولت مع شبابه .. سرقت الأيام صحته ببطء تدريجياً مع كل صباح وساعدها فى إنجاح مهمتها الخبيثة مشقة العمل فى حقله الكبير بمفرده .. ولكنه وصل أخيراً بثبات .. لم يفترش الأرض مثل باقي المرضى ممن أثقلهم الانتظار أو يتكأ على الحائط ليتحمل ثقل جسده .. نظر لساعة المركز القديمة فاكتشف أنه تأخر بالفعل .. ما زال عليه العودة لري أرضه .. انتبه على صوت الممرضة تصرخ فيه بصوت عال كي يتقدم إلى غرفة الكشف .. تمنى أن يخبرها أنه ليس أصم فلا داع لصراخها العالي لكنه كتم احتجاجه .. دلف ببطء إلى غرفة الكشف بينما ظلت فى مكانها ترمقه بنفاذ صبر وهو يتقدم .. وتتطلع بتجهم شديد نحو المريض التالي ..

انتهى من أداء المشهد بعد أن أعاده ثلاث مرات .. ما زال أمامه ثلاث مشاهد أخرى .. جاءه أحد العمال بكوب من الماء طلبه بعد أن شعر ببعض الإرهاق .. تطلع بقلق إلى هاتفه الذى يحتفظ به رغم أوامر المخرج بمنعه داخل الأستديو .. رسالة من فتاته .. ابتسم .. ساعتان ويلتقيها .. فكر فى مكان لقضاء اليوم معها بعيداً عن أعين الناس وكاميرات التصوير اللعينة التى تصيدته كفريسة سهلة وثمينة المرة الماضية على متن باخرة سياحية .. انتبه على صوت المخرج وهو يشير لبدأ تصوير المشهد التالي فزفر أنفاسه

فى ضيق .. نهض بتثاقل وهو ما زال يواصل التفكير فى مكان مناسب ..

جلس عاري الصدر أمام الطبيب .. أمامه مرايا كبيرة انعكست عليها نظراته بلا وعي .. برزت عظامه بشدة .. من فترة لم يرى جسده فى المرآه .. لم يدرك أنه خسر كثير من وزنه حقا في الفترة الأخيرة .. سرحت عيناه حتى استقرت على الندبة .. ندبة طويلة تمتد من أسفل كتفه وحتى منتصف صدره بقليل ما زالت تحتل مكانها بوضوح على جانبه الأيسر .. سحب نفساً عميقاً كما أمر الطبيب .. أغمض عينيه وبيده تحسس الندبة .. زحف يوماً تنفيذاً للأوامر لمهاجمة ثكنة للعدو طالما أرهقتهم بنيرانها لكن فاجأه جندي .. قبل أن يطلق عدوه النيران عليه انقض ونجح فى انتزاع سلاحه ولكن الجندي الخبيث انتشل سكيناً فجأة من جيبه .. ولولا أنه تراجع بسرعة لنفذ النصل الحاد إلى قلبه ولكنه اكتفى بشق طولي لم تمحو الأيام آثاره .. يومها أنقذه زميل آخر من الموت وتعلم بعدها أن لحظة سهو تساوي حياة فى تلك الحرب .. ظن أنه استوعب الدرس جيداً وأنها آخر أخطائه ولكن هفواته تكررت كثيراً بعدها .. ربما بسبب اندفاعه المتهور أحياناً أو حماسه المتقد .. هناك ندبة أخرى أعلى ظهره جراء قنبلة ألقيت بالقرب منه تأخر لجزء من الثانية فى الاحتماء منها كانت كافية لتخترق أحد شظاياها ظهره بعمق .. وندبات على ذراعيه وظهره سببتها الأسلاك الشائكة أثر انسحاب سريع متهور من أحد مواقع العدو التى هاجمها بجرأة .. أغمض عينيه قليلاً بألم .. أما الأسوأ فكانت إصابة ساقه برصاصة كانت السبب فى إنهاء خدمته .. نزف

طويلاً بعد أن توغل فى عمق خطوط العدو ولم يصل أحد من زملائه لإسعافه إلا متأخراً .. وعندما وصل للمستشفى كان الجرح ملوثاً بشدة برمال الصحراء ودخان البارود العالق فى الهواء كضباب قاتم يعيق الرؤية .. فقد كثير من دمائه وانتابته حمى بعد وصوله للمستشفى بساعات فظل يهذي بكلمات وأشياء غير مفهومة .. كوكتيل غير منطقي لا رابط يجمعه .. أغاني حماسية وأسماء -ربما لعائلته أو لأصدقائه- وأناشيد وأدعية وصرخات .. هكذا علم من الأطباء عندما أفاق .. أصعب لحظات حياته كانت عند استعادته للوعي للمرة الأولى بعد الإصابة .. استعاد صفاء ذهنه بشكل مباغت ليجد نفسه محاطاً بالمرضى داخل مستشفى كبير.. تطلع للوهلة الأولى بفزع تجاه ساقه المغطاة تحت بطانية مهترءة .. لم يشعر بها نهائياً .. لبرهة توقع أنهم بتروها .. ما زال يتذكر أول طبيب تفحص إصابته عند قدومه للمستشفى قبل فقدانه للوعى .. صورته وهو يهز رأسه بأسف مقرراً أن الساق ربما تكون بحاجة للبتر لم ترحمه أو تبارح ذاكرته .. بيد مرتعشة أزاح الغطاء لتظهر كتلة بيضاء واضحة تحتها .. ساقه محاطة بالجبس الأبيض ولكنه لمح أصابع قدميه تبرز منها بوضوح .. لم يشعر بدموعه تنساب منه رغماً عنه .. منحته الرصاصة عرج خفيف سيظل يصحبه طوال عمره دون أمل فى أن يفارقه فلم يعد بقادرعلى العودة للجندية .. عاد إلى قريته بعد عدة أسابيع مسرحاً بوسام وحقيبة من ملابسه القديمة المهترءة .. رجع بعد أن ظن أن الحرب انتهت منه ولكنه اكتشف حرباً أكثر ضراوة فى قريته .. حرب أكبر لم تمنعه إصابته من خوضها

انتهى الطبيب من الكشف عليه .. كتب له بعض الأدوية سريعاً ثم نادى الممرضة المتجهمة استعداداً لاستقبال الضحية التالية .. لم يستغرق الكشف ثلاث دقائق بعد ساعات من الانتظار .. كتم حنقه رغم ذلك .. سحب ملابسه على جسده الواهن وخرج يجرجر قدميه مسرعاً للحاق بعمله

عليه أن ينام مبكراً .. يعلم أنه سيفشل ولكن يجب أن يحاول .. غداً مشاهد خارجية .. كم يكره تلك المشاهد الحمقاء .. الشمس والعرق والغبار وحرارة الصحراء .. وبعض مشاهد الحركة الخطرة سيتأكد قبلها أن دوبليره موجود .. تقلب على فراشه بملل .. ثم عبث بهاتفه قليلاً .. أرسل رسالة لحبيبته .. ابتسم وهو يتلقى الرد سريعاً .. تأكد أن النوم لن يطاوعه فنهض من الفراش يفكر فى أنسب طريقة لقضاء سهرته

عاد إلى قريته ليجد أن الحياة لم تختلف كثيراً عما كانت عليه على الجبهة .. ربما أسوأ .. فى الحرب كان له عدو واحد واضح أمام عينيه أما ينتصر عليه فيحيا كبطل، أو يموت فيخلد كشهيد .. معادلة سهلة فقدت كثير من قيمتها عند عودته .. فى قريته اكتشف أن لديه أكثر من عدو وعلى أكثر من جبهة يخوض حربه .. وأن عليه المقاومة بلا توقف فقط كى يستعيد حقه، أو يستسلم فينتهي مصيره إلى الموت حياً .. أسوأ أنواع الموت والتى لم يخشى حقا طوال عمره سواها .. ليس هناك ألعن من أن ينتهى نبض الحياة داخل إنسان دون أن يدرك ذلك أحد سواه .. دافع عن أرض الوطن

ليعود فيجد الوطن سلبه أرضه .. كادت المرارة تقتله بعد أن فشلت الحرب طوال سنوات فى ذلك .. حقله الخصب استولى عليه بعض ذوى السلطة بعد أن طالت غيبته .. خاض حرباً أخرى طويلة الأمد خرج منها مثخن بجراح جديدة أكثر عمقاً وألماً ولكن بأرضه سليمة .. لتبدأ معها قصة شقائه

تلقى اتصال من أحد القنوات تطلب منه لقاء تلفزيوني .. أحال الأمر لوكيل أعماله للاتفاق على المقابل المالي .. يعلم أنه أكثر قدرة منه على التفاوض والحصول على عرض يناسبه .. اشترط أن لا يتكلم عن عمله الحالي .. لا يريد أن يحرق الفيلم للجمهور المتعطش .. اتفق معهم أيضاً على قراءة سكربت الحلقة والاتفاق على الأسئلة قبل بدء التسجيل .. سرعة البديهة ليست أحدى مميزاته ولا يحب الأسئلة المفاجئة التى يستنزف بها مقدم البرنامج كرامة ضيفه أمام الجمهور أو يحرجه لزيادة نسبة المشاهدات .. سبق وأن وقع فى هذا الفخ من قبل ولا يريد تكرار التجربة .. وربما .. لو سار البرنامج كما يهوى .. يعلن لأول مرة نبأ خطبته أمام الجمهور

سنوات من الشقاء مع الأرض قبل أن تبوح بسرها .. أهملها غيابه ورعونة من زرعها بعده حتى فقدت كثير من رونقها .. طهرها من الأعشاب وزحف رمال الصحراء المتاخمة لحدودها الشرقية .. شق قنوات جديدة وطهر المصرف القديم وابتاع ماكينة ري حديثة بعد أن سُرقت القديمة .. من مخزون مكافآته الضئيلة اشترى

أفضل السماد والمبيدات .. لم تبتسم له الأرض إلا بعد أن دللها كثيراً .. وقتها فقط أدرك أنه لم يعد ينقصه بعد الأرض سوى أسرة .. أسرة تعمل على تثبيت جذوره الهشة مرة أخرى فى تربة الحياة فبحث عن فتاة أحلامه حتى ساقه الحظ إليها .. ابنة مزارع من جيرانه شاهدها عدة مرات تعمل فى حقل والدها خاصة أيام الحصاد بعد أن هاجر أخوتها لبلاد بعيدة بحثاً عن رزق تعذر العثور عليه فى الوطن .. تذكر أول مرة رآها .. أدرك من نظراته الأولى التي خانته فأبت أن تفارقها أنها هي من حلم دوماً بها وطالما راودت خياله صورتها .. كاد يطير من الفرح عندما علم من ابنة عمه وصديقتها المفضلة أنها تبادله الشعور نفسه .. تقدم لوالدها وبدأ يعد الأيام بلهفة شديدة لموعد زفافه .. اضطر أن يقترض ويبيع جزء من محصوله القادم قبل أن تنبته الأرض حتى يجهز بيته ليليق بها .. ويبتاع لها هدية زفاف مناسبة

ابتسم لكاميرات التصوير وهي تلتقط صور حفل زفافه .. عروسه رائعة كالعادة .. اختارها بنفسه .. أو هي من فعلت .. لا يهم .. المهم أنه اقترن بها

صحيح أنه تردد طويلاً خوفاً من أن يفقد جزء من شعبيته الكبيرة كممثل جمهوره أغلبه من النساء ولكنه حسم أمره في النهاية .. لم يطمح فى زواج أفضل مع زوجة جميلة اسم عائلتها كفيل وحده بفتح كل الأبواب المغلقة .. ما يضايقه أن شهر العسل لن يستمر لأكثر من أسبوع فقط؛ عليه العودة بعدها لاستكمال تصوير فيلمه للحاق بموعد عرضه المقرر مسبقاً خاصة بعد أن تعطل التصوير

طويلاً بسببه .. عروسته لم تمانع على أي حال .. ذلك الفيلم اللعين لا يريد أن ينتهي .. ابتسم مرة أخرى وهو ينهض مصافحاً أحد كبار المسئولين من الحضور ممن تقدم لتهنئته للتو .. حرص على أن يشد على يده بحرارة .. قبل أن يعتدل بخبرة لمواجهة كاميرات التصوير التى بدأت تلمع سريعا لتلتقط صور تلك اللحظة ..

هاجمها المرض بعد أن أنجبت ابنه الوحيد .. مرض طويل مرهق استنزف صحتها وكل موارده .. وربما الأسوأ؛ استنزف قلبه ومشاعره وهو يراها تذبل أمامه يوماً عن يوم دون أن يتمكن من تقديم يد المساعدة .. أكدوا أنها تحتاج لعملية كبيرة حتى تشفى .. والأفضل أن تجرى فى الخارج .. والدولة التى دافع عنها لم تبال بصحة حبيبته .. لم يكن معه مال كاف .. لأول مرة يقف موقف اختيار لم يتوقعه بين طرفين يعشقهما لحد الجنون .. اختار وهو يبكي وباع على الفور جزء من أرضه العزيزة كي يسدد ضريبة علاج زوجته .. نجحت العملية ولكن ماتت المريضة .. مضاعفات مفاجئة بعد العملية كما قالوا .. نقلوا إليه الخبر فى المستشفى يومها فلم يستوعب الأمر فى البداية أو يستشعر قسوته إلا بعد أن شعر أن جزء عزيز منه رحل معها .. لو كان الأمر بيده لباع ما تبقى من أرضه وكل ما يملك من أجل أن تظل معه ولكن القدر حرمه منها وتركه وحيداً مع طفل لم تثبت صورة أمه بعد فى ذاكرته .. حاول أن يتماسك ليقف على قدميه بعد الصدمة .. يدرك أن على قلبه المثخن بجراحه أن يستمر بالنبض ولو قسراً من أجل ولده .. له وحده كرس باقى حياته .. أكمل دراسته التى تركها صغيراً مضطرراً حتى لا يواجه ابنه أب جاهل مستقبلاً .. ضحى بمعظم

احتياجاته الزهيدة من أجل أن يزوده بكل ما يتطلع إليه .. اصطحبه للأرض يومياً ولكنه منعه من العمل فيها، فقط ليرقبه بسعادة وهو يستذكر دروسه .. سنوات زحفت لم يشعر بها ليزداد الشيب فى رأسه ويغزو المرض جسده المرهق بسهولة لم يتوقعها .. لكنه شعر أنه استعاد كل شبابه وقوته عندما التحق ابنه بالكلية التى حلم بها طويلاً .. بكى لأول مرة منذ وفاة زوجته وهو يودع ابنه مغادراً للإقامة فى المدينة لاستكمال دراسته وإن حرص على أن يبكي كعادته منزوياً بعيداً عن أعين الناس وبخاصة أعين ابنه .. الحزن وجبة ثقيلة لا يرغب أن يشاركه فيها أحد .. عد الأيام وأحصى الساعات وراقب الليال بصبر مترقبا عودة ابنه ولكنه أكمل طريقه هناك بعيداً عنه .. وزادت المسافة بينهما عندما قرر الولد السفر للخارج بحثاً عن مستقبل أفضل لن يوفره له الوطن رغم نبوغه .. وقتها فقط أحس بوطأة الوحدة وثقل السنين .. وغربة داخل وطن لم ينقذ قدمه أو يعالج زوجته أو يحرص على ترسيخ جذور ابنه فى تربته ولو قليلاً .. من يومها لم يعد يمشى مستقيم الظهر كما كان .. شئ ما أقوى منه يثقل روحه .. لم يعد يتطلع لمنظر شروق الشمس بلهفة كل صباح .. لم يعد هناك جديد يحمله الصباح إليه ويترقبه .. رغم ذلك واصل عمله فى حقله بجهد .. فقط كي لا تموت أرضه ..

انتهى من أداء المشهد الأخير .. تلقى تصفيق الحاضرين فى الأستوديو بابتسامة ثقة .. أخيراً انتهى من فيلمه الجديد بعد أسابيع من التصوير .. تنفس بارتياح .. يأمل أن يعوضه الفيلم الجديد إخفاق فيلمه السابق .. ورغم القلق الذى يعتريه كل مرة مع اقتراب

موعد عرض عمل جديد له واقتحامه سوق المنافسة خوفاً من إيرادات الجمهور وآراء النقاد، لكنه واثق من نجاح الفيلم تلك المرة .. ميزانية ضخمة رصدت له وشهور طويلة من التحضير والتصوير .. قصة جيدة تم اختيارها بعناية ومؤثرات متقنة .. بالإضافة إلى طاقم عمل فني على أعلى مستوى ..

لما الخوف الذى يشعر به بداخله الآن إذن .. ربما بسبب زوجته .. بعد ثلاث أشهر من الزواج فاجأته بنبأ حملها .. تلقى النبأ فلم يدر للوهلة الأولى كيف يتصرف، لكنه تظاهر بالفرح أمامها .. ألجمته المفاجأة بالفعل .. لم يصدق أنه سيصبح أباً .. لم يخطط للأمر فى الواقع .. ولم يتخيل نفسه في ثياب الأب .. اصطحب زوجته لأفضل الأطباء لمتابعة حالتها .. تعهد والدها أن تلد بالخارج فور علمه بالخبر السعيد، طمعاً فى الحصول على خدمة أفضل كما زعم، وربما أيضاً أملاً فى أن يحمل حفيده القادم جنسية البلد الأجنبي الذى تلد به .. ولم يعترض .. سيصطحبها اليوم لسهرة لطيفة بمناسبة انتهاء العمل .. خاصة بعد أن انشغل عنها طوال الفترة الماضية بسبب الفيلم .. وأشياء أخرى

عاد إلى بيته يومها يجرجر قدميه بصعوبة .. شئ ما يمنع الهواء أن ينفذ بحرية إلى رئتيه .. ويعيق قلبه أن ينبض بحيوية كعادته .. شئ ما لا يدري كنهه يجعل الصور تتلاشى أمام عينيه، ويثقل سمعه فتغدو الأصوات كلها بعيدة .. تحسس بيده طريقه حتى عثر على كرسيه فتهاوى عليه .. لم يعد بقادر على النهوض وفتح نافذة البيت الكبيرة لمنح الضوء حق الدخول .. ابتسم رغماً عن عجزه

.. لم يعد يتذكر كم مرة تسللت رائحة الموت إلى أنفه وأحس بحرارته تنفذ إليه واستعد لرحلته الأخيرة معه على الجبهة .. ولكنه نجا كل مرة وأفلت من حصاره .. سخر من الموت وهو يهرب من قبضته المحكمة مرارا بصورة أو بأخرى فى الحرب، والآن حان الدور على الموت ليحقق انتقامه فيجابهه وحيداً متهالكاً على كرسي قديم فى بيت خاوي تحجبه الجدران عن الناس والضوء .. لن يجد حقا فرصة أفضل لاقتناصه

رغم أنه يستشعر خطواته الخفية تقترب، لم يرتعد منه .. تآلف معه فلم يعد يرهبه .. لا يتذكر أول لحظة تعارف فيها مع الموت .. ربما عندما تم اختياره لينضم إلى مجموعة من رجال الصاعقة دورها القيام بعمليات شبة انتحارية خلف تحصينات العدو الغاشم .. وقف أمام قائده بتحفز يومها وقلبه ينبض بعنف .. يندفع فى عروقه دم الحماس وحب وطن ما زال بكراً داخله .. لم يكن يدري وقتها أن مجموعته التى بدأت بخمسة عشر جندياً ستتناقص للنصف قبل مرور أول أسبوعين .. وأن يد الموت لا تفرق بين عدو وصديق .. وأن فى قانون الحرب اللعين لا أرخص من الروح؛ خطأ واحد فقط يكفى لإسدال الستار وكتابة كلمة النهاية مرة واحدة وللأبد .. أكسبته الحرب مناعة ضد الخوف وهو الذي كان يرتجف من كل شئ قبلها .. من يقابل الفناء تتضاءل أمام أعينه للأبد مخاوفه الأخرى .. قالوا عنه أنه شجاع .. والبعض زعم أنه مجنون .. لا يهم .. وحده مجنون أو شجاع من يكسب الحرب .. هل كان عاقلاً عندما ركض وسط النيران لإنقاذ زميل حاصرته النيران أو توغل فى مناطق العدو بتهور دون حماية تسانده .. هل فكر حقاً وهو يندفع بمفرده للانتقام من عدو يتربص

خلف ثكنة محصنة ظل يحصد من ورائها كثير من أرواح زملائه .. هل كان بكامل عقله وهو يروى بدمائه تراب وطن قد لا يمنحه العمر فرصة للعيش فوقه .. لم يفكر فى الأمر إلا بعد أن أنهى واجبه .. الميدالية التى أهملها داخل صندوق صغير فوق خزانته تشهد أنه جندي شجاع .. ابتسم رغم المرارة التى تهاجمه الآن .. قلدوه ميدالية، وسحبوا سلاحه، وتركوه وحيداً يواصل حياته فى حرب أوسع وأطول، وهو أعزل تماما .. ولكنه نجح .. استرد أرضه .. حارب لصوص السلطة والوطن ممن استولوا بلا حق عليها .. ساعد كل من لجأ إليه فاستحق سمعته الطيبة بين الناس .. ابنه مهندس يشار إليه بالبنان و صيته رغم غربته ينفذ للوطن .. كرموه ذات مرة فى أحدى الاحتفالات، شاركهم الاحتفال بسلام فقد أهميته، وأجرى معه كاتب شهير وقتها مقابلة لنشر سيرة حياته فى كتاب يحكي عن بطولات أبناء الوطن .. أرسل له نسخة من الكتاب بعدها ولكنه لم يقرأه .. لا يحتاج لذلك فسطور الكتاب محفورة فى ذاكرته على أي حال .. أشاد الكاتب به يومها وأكد أن قصته عظيمة وربما تصلح لعمل فني ولكنه لم يهتم، ولا يرغب في أضواء شهرة حمقاء .. لم يعد يشغل باله سوى البحث عن إجابة لسؤال واحد ثقيل ظل يتردد بداخله طوال تلك السنوات .. سؤال لم يجد له إجابة رغم أنه حاول كثيراً، وتمنى أن يوجهه للوطن الذى حارب من أجله لعله يجد إجابة شافية لديه .. لما لم تنتهي تلك الحرب اللعينة حقاً حتى الآن، ولما تتخذ كل يوم صور جديدة أشد ضراوة من سابقها، ولما يعاملهم الوطن أحيانا كأعداء دون جريرة منهم، ويدفعهم إلى حرب طويلة معه دون هدنة

ضوء صغير يتسلل ببطء من وراء النافذة .. يرى الآن بوضوح أكثر الصورة القديمة التي علقها بحرص على الجدار بجوار صورة ولده .. صورة باهتة تجمعه مع عدد من زملائه .. البذلة الرمادية والكاب القصير والسلاح الرمادي المعلق على الجانب الأيسر ..عيون تلمع ببريق الحياة وأجساد متحفزة وحماس يلهب الوجوه .. انفرجت شفتاه عن ابتسامة ضئيلة .. ما زال يتذكرهم .. بعضهم سبقوه وبعضهم أكمل رحلة المعاناة معه .. صحبة جمعها الدم صعب أن تفرقها الأيام أو تسقط من الذاكرة ..

انتبهت حواسه فجأة .. رفع رأسه واعتدل قليلاًعلى كرسيه .. شئ غامض يشعر به فى بيته الآن .. زائر ما تسلل إليه ببطء ويتجول فيه بحرية .. صديق قديم يدرك ذلك .. وحده جندي عجوز يميز خطواته ورائحته .. وحده جندي قديم تآلف معه فلم يعد يفزع لاستقباله .. استرخى فى كرسيه بصعوبة .. ابتسم دون وعي وهو يغمض عينيه بسلام .. تنفس بعمق .. و .. أعد نفسه أخيرا بارتياح شديد لنهاية الحرب

موعد حفل افتتاح فيلمه يقترب .. ويزداد معه توتره .. يومان ويحكم الجمهور على عمله الجديد .. بذل الإنتاج مجهوداً ضخماً .. حملة إعلانات كبيرة سبقت العرض ترويجا له .. عدد كبير من دور العرض تعاقدت مع الفيلم .. التوقعات تؤكد أن الفيلم خارج نطاق المنافسة ولكنه ما زال قلقاً .. سيحل الليلة ضيفاً على برنامج تلفزيوني ذائع الصيت .. سيتلقى عدد من المكالمات عليه أن يجيب عليها بهدوء .. والأهم .. أن يبدو واثقاً من نجاح عمله .. بعدها

يعد نفسه لحضور العرض الخاص بفيلمه ومقابلة الجمهور مباشرة ..

لم يكتشفوا جثته إلا فى اليوم التالي أثر تغيبه عن الحقل الذى لم يتأخر عنه يوماً .. أنهوا الإجراءات سريعاً .. أرسلوا لابنه لكنه لم يتمكن من العودة فى الوقت المناسب .. شيعت جنازته وسط بضع عشرات من أهالي قريته .. لم يتخلف عنها أي من أهالي بلدته الصغيرة ممن تواجدوا وقتها ..

فى أسبوع عرضه الأول حقق الفيلم إيرادات ضخمة، شاهده آلاف المشاهدين فى دور العرض المختلفة، ونال استحسان الجمهور والنقاد

حضر النجم كالعادة العرض الخاص بفيلمه بصحبة زوجته رافضاً إجراء أحاديث مسبقة لأي من وسائل الإعلام المختلفة التى تسابقت لتغطية الحدث .. جلس بصحبة طاقم العمل داخل القاعة أمام الجمهور محاولاً الابتسام لكاميرات التصوير .. تلاشت الأضواء تدريجياً داخل القاعة، ساد السكون المكان وشاشة العرض الكبيرة تعرض أولى مشاهد الفيلم .. ارتسمت ببطء على الشاشة الضخمة أول مشاهد العمل حيث يقف البطل وسط صحراء قاسية مرتدياً بذلة رمادية فقدت لونها وكاب قصير لا يكاد يحيمه من أشعة الشمس ويده تستقر بتحفز على سلاحه المعلق على جانبه الأيسر وسط مجموعة أخرى ترتدي الزى نفسه وتستعد للهجوم على ثكنة

ما للعدو .. توالت المشاهد سريعاً فاندمج الجميع معها .. انتهى الفيلم أخيرا وسط تصفيق وتحية خاصة من الحاضرين لطاقم العمل

خرج النجم من صالة العرض ليتفاجئ باستقبال الجمهور الذي احتشد في الخارج لرؤيته .. مئات من الحاضرين تراصوا رغم البرد القارس خارج صالة العرض وبمجرد أن ظهر حتى اندفعوا لتحيته بحماس .. ابتسم النجم ابتسامته الجذابة المعهودة متطلعاً للجمع الصاخب، رفع يده ليرد التحية بينما استمر الجمهور المتدفق بالهتاف والتصفيق بحرارة شديدة .. للبطل

ممثل

انتهى من أداء دوره على المسرح .. تلقى تصفيق الجمهور الباهت له كالعادة .. خرج سريعاً .. بدل ملابسه على عجل .. تطلع للساعة .. تأخر على موعده المنتظر مع حبيبته .. لم يحاول أن يتصل بها للاعتذار .. لا بأس أن تنتظره قليلاً ..

يعلم أنها تحبه .. وهو يحبها أيضاً، لنقودها .. أرملة غنية أوقعها القدر بين يديه فاستغل الفرصة جيداً .. تعدت مرحلة الشباب من فترة طويلة لكنها ما زالت تتمتع بمسحة من الجمال وخفة ظل ساحرة، ولكن يظل أجمل ما فيها نقودها .. لم يكن من السهل أن يوقعها فى شباكه .. عانت من جفاف المشاعر طويلاً ففقدت ثقتها بنفسها أولاً، وبإمكانية أن ينجح أي رجل في انتشالها من أزمتها وتحريك عواطفها المكبوتة مرة أخرى .. أدرك ذلك بخبرته بعد أن جمعته الصدفة بها .. سعى وراءها طويلاً حتى نجح فى لفت انتباهها فقط .. تقرب إليها ببطء لكن بخطوات رسمها جيداً .. مثل عليها دور العاشق ببراعة يتقنها وأقنعها أن هناك باباً للسعادة لم تطرقه، وعالماً أجمل من العشق لم تختبره يمكن أن يقودها إليه .. أغرقها بكلماته المعسولة وأغراها بوعود كثيرة لم يعد بإمكانه فى تلك اللحظة تذكرها فأسلمت ببطء وعن طيب خاطر إرادتها له .. أجاد اللعب ببراعته على وتر مشاعرها وإبداء الإعجاب بكل أفكارها حتى امتلك عقلها قبل قلبها .. وعندما تأكد تماما أنها تحبه، بدأ في استغلالها

أرتدى أفضل ملابسه .. لا يريد أن يتأخر عليها أكثر من ذلك .. يحتاج أن يقترض منها مبلغ من المال لسداد بعض ديونه وتدبير أموره المالية المتعثرة مؤخراً .. فى آخر لقاء بينهما عاملته بقليل من القسوة والشك عندما طلب منها مبلغ من المال، وها هو يعاقبها .. وصل إلى هناك فرآها بانتظاره .. لمح ملامح القلق ترتسم بوضوح على وجهها دون أن يبال .. انطبعت على وجهه ابتسامة ثقة واضحة تضاءلت سريعاً حتى اختفت تماماً وهو يقترب منها .. جلس بجانبها ببرود وقد تجهم وجهه .. لم يحاول الاعتذار عن تأخره غير المعتاد .. تركها تعاتبه لدقائق كما توقع .. تحجج بأعذار واهية يعلم جيداً أنها لن تصدقها .. ثم بدأ يبادلها العتاب هو الآخر لمعاملتها القاسية معه .. دقائق وبدأ يدير دفة الحديث لوجهة أخرى بعد أن تأكد أنها تشعر بذنب تصرفها السابق معه .. أمسك يدها محاولاً أن يعود بالحديث إليها .. بدأ يبثها مشاعره .. كلمات ناعمة داعبت خيالها ولمست مشاعرها .. بادلها نظرات تنطق بعشق صاخب لم تستطع سوى الاستسلام في سحره .. ثم بدأ يشكو تدريجياً من صعوبة الحياة .. وديونه المتأخرة .. تلك المرة عندما طلب منها مبلغ من المال لم تعترض .. عاوده مرحه المحبب المصطنع برفقتها عندما أيقن من تحقيق هدفه .. سهر معها حتى الصباح، وتركها بعد أن ربح تلك الجولة الهامة معها ..

في الصباح نهض متثاقلاً .. تطلع للساعة فقفز مذعوراً .. ذهب للعمل متأخراً كالعادة .. تنهد بضيق وهو يخطو داخل المكان .. ذلك العمل التقليدي الممل .. لولا أن راتبه من عمله المسائي لا يكفيه ما استمر فى تلك الوظيفة .. لو معه نقود لكان عمله

الصباحي على رأس قائمة من الأشياء في حياته عليه أن يبدأ بالتضحية بها دون تردد .. ولكن بخلاف الراتب، ما زال عمله يمنحه مكانة اجتماعية خاصة يحتاجها .. اتجه لرئيسه فى العمل محاولاً التظاهر بالمرض .. لم يكن بحاجة للتمثيل .. ملامح وجهه المرهقة وعيونه المنتفخة والشحوب الذى يكسو جلده أدلة لم يبذل جهداً لافتعالها تشير إلى مرضه بوضوح .. تقدم من رئيسه ببطء وهو يخطط لكل كلمة يلقيها .. لم يكن خائفاً رغم قصوره والعقاب الذى يترصده إن لم يفلح في تقديم أعذاره .. يجيد التعامل مع رئيسه فى العمل على أي حال .. رجل طيب إلى أبعد حد لا يسمح ببوادر سوء نية تجاه أحد أن تتسلل إليه، وهو ما يساعده على إنجاح مهمته باستمرار .. رسم على وجهه ابتسامة شاحبة وهو يدنو من رئيسه، وعلى وجهه علت ملامح جد تمتزج ببعض الإرهاق .. خاطبه بصوت ضعيف وبكلمات منمقة يجيد حفظها .. ليست تلك أول مرة يتظاهر بالمرض ولن تكون الأخيرة كوسيلة فعالة يلجأ إليها دوما لتبرير تأخره .. أقنعه أنه سهر لوقت متأخر فى حفل زفاف قريب له كواجب لا بد من تلبية نداءه ولا مفر منه، فاستيقظ وقد تسلل إلى جسده المرض مستغلاً حالة الإرهاق التي أصابته من طول سهر لم يعتاد عليه .. تسلل صوته المرتعش إلى رئيسه قبل أن يرفع الكهل عينيه عن بعض الأوراق ليتفحص وجهه المحتقن ملياً .. لم يكن فى حاجة لأدلة أكثر .. آثار المرض البادية بوضوح عليه تشفع له ولا يمكن أن تكذب روايته .. طالبه بالراحة ونصحه بالابتعاد عن أي نشاط آخر شاق لبقية يومه .. استمع لنصيحته الأبوية باهتمام لا تخطئه العين متقبلاً إياها بامتنان بالغ .. نجح فى إقناعه مرة أخرى فأفلت من عقاب جديد .. ابتسم لنفسه مهنئاً وهو يغادر المكان على نجاح كان يثق سلفاً في حصده

توجه سريعا إلى مدرسة قريبة، تدرب على دوره الجديد في الطريق .. يستعين به بعض المقربين أحيانا لانتحال شخصية لغرض ما، وربما لعمل بعض المقالب الطريفة لأحدهم .. من يومين فقط تظاهر أنه أمين شرطة ليقطع خلوة شاب وفتاة يتناجيان بالعشق في ركن خاص من حديقة عامة ويصر على اصطحابهما للقسم بتهمة خدش الحياء العام، لم يكن سوى مقلب دبره أحد أصدقاء الفتي ونجح فيه لدرجة أن الفتاة كادت تبكي قهرا بعد أن خافت من الفضيحة وتوسل إليه الفتى كثيرا، بل عرض عليه مبلغا من المال كرشوة كي يطلق سراحهما ويتغاضى عن الأمر .. وها هو مراهق يستعين به بعد سلسلة مشاغبات أصرت على أثرها مدرسته باستدعاء ولي أمره .. سيتظاهر أنه أخيه الأكبر خاصة أن والد المراهق متوفى بالفعل .. لولا شعوره بالشفقة تجاه المراهق الذي يؤدي بعض الأعمال البسيطة في الفرقة لما قبل القيام بالأمر .. توجه مباشرة إلى حجرة الناظر وتحدث معه لدقائق، ارتسمت على وجهه علامات الغضب والناظر يشكو له بشدة من سلوك المراهق .. ثارت أعصابه وأقسم أن يلقنه درسا لن ينساه واحتقن وجهه بشدة حتى أن الناظر نصحه بالتعامل مع الموقف بحكمة دون تهور .. صافح الناظر في النهاية بيد ترتجف من الغضب الشديد ووعده بالتدخل بحسم كي يضمن عدم تكرار الأمر في المستقبل، صافحه الناظر بود ناصحا إياه مجددا بضرورة التعامل مع الأمر بأكبر قدر من الهدوء والتريث

في المساء قابل بعض أصدقائه في المقهى .. عادة يجتمع بهم في بداية المساء قبل موعد ذهابه للمسرح .. يروي لهم تفاصيل يومه وبعض مغامراته مع الممثلات يغلفها دائماً بإطار صاخب من وحي خياله يثير بها فضولهم .. تستهويه رؤية نظرات الإعجاب وهي تلون أعينهم تجاهه .. قصصه ومغامراته لا تنتهي ينصب نفسه فيها دائماً بطلاً على خلاف الواقع .. يطلعهم همساً على آخر فضائح النجوم .. بعضها حقيقي وكثير منها مزيف .. وعن علاقاته الوثيقة معهم .. يشبع غروره وهو يري نظرات الافتنان بما يقوله تمتزج أحياناً بكثير من الحسد تجاهه .. يوهمهم أنه بطل لا يشق له غبار ومغامراته أكبر من أن تحصيها أرقام جوفاء أو تسعها ذاكرته .. ورغم أن بعضهم تشكك في صحة قصصه من قبل، ولكنه يحتاط للأمر جيداً ولا تخلو جعبته من حيل يتقنها تكفي لإقناعهم .. صور مفبركة، ورسائل ساخنة يرسلها لنفسه من حسابات وهمية، والأهم تسريبات حقيقية لفضائح نجوم كبار يجيد استغلالها ببراعة، وربما تضخيمها ونسج العديد من الأكاذيب والأساطير حولها .. لا ينسى يوم ساعده القدر ليشهد بنفسه بطلة العرض في أحضان ممثل مغمور فى أحدى كواليس العرض، صدفة غريبة أهداها له القدر، لم يكن يبحث سوى عن ملاذ آمن في الكواليس لتدخين سيجارته بعيداً عن أنظار المخرج اللعين الذي يكره التدخين .. استغل الفرصة جيداً بعد أن قام بتصويرها لتصبح حكاية دسمة لا تقبل التشكيك في صحتها يعيدها لأصحابه مراراً على المقهى .. وتلك الممثلة الشابة التي جمعه بها مشهد في المسرحية حيث تؤدي دور عشيقته، ألتقط صور لها وهي في أحضانه بثياب النوم تؤدي المشهد .. لن يشاهد أحد من أصدقائه المسرحية على أي حال، ليتباهى بعلاقته بها وينسج حولها كثير

من الأكاذيب ببراعة .. لم يستطع أن يمكث طويلاً مع أصدقائه تلك الليلة على غير العادة .. لديه موعد مهم مع عمه .. ثم بعدها عليه أن يتوجه للمسرح .. استأذن منهم مبكراً قبل أن يتجه نحو منزله بخطى سريعة، وعيونهم ما زالت ترمقه بإعجاب خفي

توجه إلى منزل عمه متأنقاً .. عمه الوحيد .. الوجه الثري في العائلة والواجهة التي يشعر بالفخر للانتساب إليها .. تاجر جاهل لم يكمل تعليمه لكنه ذكي يجيد بشكل تام قراءة السوق واستيعاب معادلاته الخاصة .. سمعته الجيدة بين التجار تسبقه دائماً، جاد ومتزمت للغاية وهو ما يضايقه .. منذ وفاة أبيه وعمه يعامله بنوع من الحنان، ولكن بقسوة شديدة عندما لا يستهويه أسلوب حياته .. صارم هو تجاهه فيما يتعلق بعبثه ولا يقبل أي أعذار يختلقها إن علم بأحد نزواته .. لذلك يحرص على أن يبقي كل فضائحه بعيداً عن عمه .. لا يريد أن يستثير غضبه .. ويخوض تجربة التعنيف علي يديه مرة أخرى

لولا ابنة عمه ما انشغل كثيراً بتحسين صورته أمام عمه .. تلك الفاكهة التى يترقب قطفها بفارغ الصبر .. سترث جزء كبير من أرث عمه بالتأكيد خاصة أنها ابنته المدللة .. ليس لها سوى أخ واحد سافر للخارج من عدة سنوات على غير رغبة والده ولم يعد حتى الآن، مما أجج من غضب والده تجاهه .. وهو يعلم أن عمه إذا غضب تحجر قلبه قبل عقله .. ربما يتخذه ابناً عوضا عن الآخر الذي عصى أوامره وغرد بحرية مطلقة خارج سربه .. وهو يخطط للتقدم لخطبة ابنة عمه قريباً .. رغم إفلاسه، لكنه يثق

في مشاعرها تجاهه .. نجح فى إقناعها بحبه بسهولة مستغلاً أن لا تجارب سابقة لها .. فاز بقلبها البكر والآن يسعى للظفر بيدها .. تخلص من علبة سجائره بأن ألقاها في الطريق .. عمه لا يحب المدخنين .. مضغ علكة سريعاً لتغطية رائحة الدخان المنبعثة بوضوح من فمه .. رسم على وجهه أمارات جد لا يألفها كثيراً .. استقبله عمه بالترحاب فرد عليه بود متكلف .. تناول معه العشاء برفقة ابنة عمه واستمع بأدب لنصائحه التي لا تكاد جعبته تفرغ منها .. أوامر هي ونواهي صارمة يغلفها في هيئة نصائح أبوية ودية .. انشغل عمه بتلقي بعض المكالمات فاستغل الفرصة لتجاذب حديث خاص مع ابنة عمه .. ليست جميلة .. على الأقل مثل كثير من عشيقاته .. ولكنها تتمتع بطيبة قلب، وثروة متوقعة تمنحها في عينيه فتنة كبيرة وجاذبية خاصة يصعب مقاومتها .. استغل غياب عمه وخطف منها قبلة سريعة توردت لها وجنتاها بعد أن تسللت إليها مشاعر خجل بكر وإحساس كبير بالذنب، وقليل من نشوة حب هو الأول الذي يطرق قلبها .. عندما عاد عمه استأذن فى الانصراف متحججاً باعتياده النوم مبكراً من أجل عمله الصباحي المرهق .. ربت عمه على كتفه بحنان، شد على يد عمه باحترام وهو يغادره .. قبل أن يخطو سريعاً يلاحق الزمن بعد أن ألقى نظرة كافية على ساعته

انطلق للمسرح .. بدل ملابسه .. صعد على خشبة المسرح .. بدأ يؤدي دوره بعناية فائقة دون أن يدخر جهداً كالعادة .. نسى نفسه فاندمج مع دوره تماماً، وتقمص الشخصية بكل جوارحه .. فى الواقع لم يكن يعلم أن المسرحية يحضرها ناقد مهم .. ناقد مشهور

لا يختلف خصومه في الوسط الفني قبل أنصاره على جدارته، أو سطوة كلمته .. دون الناقد ملاحظاته بعد أن ظل يتابع المسرحية بتركيز تام .. في الصباح نشر مقاله الشهير مستعرضاً نقده للمسرحية بأكملها، ومكتفياً بسرد بضع أسطر بإيجاز عنه في نهاية مقاله الطويل .. "ممثل ضعيف الموهبة ولا يجيد التمثيل .. أدواته كممثل محدودة بشكل واضح لم تنضج بعد .. لم يثبت حضوره علي خشبة المسرح رغم دوره القصير الذي يمكن لأي ممثل مبتدئ القيام به بشكل أفضل، ما زال يتلعثم ويرتبك وينسي دوره أحيانا كثيرا، وعلى المخرج استبداله قريباً بممثل جديد .. وهناك أخبار مؤكدة سمعتها أن المخرج ينوي بالفعل منح دوره لممثل آخر، والاستغناء عن خدماته بسبب نقص موهبته"

شمعة

ينتابني كثيرا ذلك الشعور بأني أسوأ الناس حظا ..

وأكاد أؤمن أني خُلقت فقط كي أكون سببا في إسعاد الآخرين .. دون قصد أو تعمد مني لذلك

وأرى دوما بحسرة كل ما أقوم به يصب في مصلحة الآخرين بصورة أو بأخرى .. بل يقود بعضهم أخيرا إلى طريق السعادة التي يفتقدونها .. بعد أن أخسر بالمقابل نصيبي منها

وهو ما يعذبني

ربما بدأ الأمر حقا من لحظة ميلادي ..

تزوج أبي وأمي في سن مبكرة، ولأني أول أبنائهما، فقد كنت بمثابة فأر تجارب نظرا لقلة خبراتهما في الحياة بوجه عام، وتربية الأبناء بصفة خاصة .. ولا أعتقد أن أي من أشقائي الثلاث عانى كما عانيت .. لم يقاسي أي منهم من الحساسية بسبب الحليب الصناعي التي اعتادت أمي شراؤه من تاجر كبير تبين لاحقا أن بضاعته مغشوشة .. ولم يجرب أي منهم تلك الوصفات الشعبية الخاصة بجدتي والتي اعتادت أمي أن تلجأ إليها كلما مرضت، وبسببها كانت تزداد حالتي سوءا في كثير من الأحيان .. لم يرتدي أحد منهم ملابس البنات حتى سن الرابعة أو يمنع من الاختلاط كثيرا مع غيره من الأطفال بسبب الخوف من الحسد كما كانت تؤمن أمي بشدة وقتها .. أو يرتاد تلك المدرسة الحكومية القريبة

من منزلنا والتي تبين أنها سيئة مما دفع أبي إلى نقل أخوتي لاحقا إلى مدرسة خاصة حتى لا تتكرر تلك التجربة الفاشلة .. وبسببي أصبح لدى والدي خبرة بأفضل المعلمين والأطباء، ودراية واسعة بأفضل طرق تربية الأبناء بل وتنمية مواهبهم وهو ما أفاد أخوتي لاحقا .. وعندما فشلت في الحصول على الثانوية بمجموع مرتفع بسبب رفقة السوء التي كنت أقضي معظم الوقت معهم بالإضافة إلى إهمال والدي لأمري، تعلم أبي جيدا من الدرس كما يبدو لذا التحق أخوتي بكليات أفضل ..

أتذكر أيضا في عمر الخامسة عندما سقطت في تلك البلاعة المفتوحة في الشارع وكسرت ساقي، بل كدت أفقد حياتي لولا تدخل بعض المارة، لتنشر الصحافة الخبر وتهاجم المسؤولين عن ذلك الإهمال وبقسوة .. وهو ما دعا البلدية إلى إغلاق العديد من البلاعات وقتها مما أنقذ حياة كثير من الأطفال، بينما قضيت أجازتي ذلك العام ممددا على السرير أتطلع إلى ساقي المجبرة بحسرة ..

ولاحقا في المدرسة، لم أنسى عندما دخل ذلك المعلم العابس فصلنا لأول مرة، لنرتجف خوفا بعد أن سمعنا كثيرا عن قسوته .. وعندما طرح سؤال صعب بعد حصة طويلة لم نفهم فيها شيئا، واختارني لسوء حظي لأجيب عن السؤال ففشلت، حتى رفع عصاه لينهال علي بالضرب دون رحمة .. وعندما علم والدي بالأمر بعد أن رأي الكدمات على ذراعي ويدي، توجه إلى إدارة المدرسة على الفور مهددا إياها بتحويل الأمر إلى الشرطة إن لم تعاقب المعلم، ليختفي بعدها المعلم الرهيب وينقل إلى مدرسة

أخرى، ويتنفس طلاب مدرستنا الصعداء بعد تخلصهم منه، لكن دون أن أسلم من سخريتهم رغم ذلك بسبب ما حدث طوال العام

وعندما تحصلت على عقد عمل أخيرا في الخارج، وعملت دون كلل لدى تلك الشركة لعدة أسابيع دون أن أتحصل على أي راتب، حتى قررت الاعتصام وشكوى الشركة، فكانت النتيجة طردي من العمل دون حصولي على مستحقاتي خاصة أن عقدي كان ملئ بالثغرات التي لم أنتبه إليها إلا متأخرا .. لكن بسبب ما قمت به، ساءت سمعة الشركة ورفض كثيرون العمل بها، فأنقذتهم دون وعي مما تعرضت له

وعندما حصلت بعدها بفترة طويلة على عمل آخر في الخارج بصعوبة، قضيت عامين في الغربة لأقرر الزواج .. خطبت ابنة عمي في أول أجازة أتيحت لي وتعلقت بها بشدة، لكني كنت أضيق كثيرا بتدخل والدتها في كل شئ، حتى أنها هي من كانت تتولى اختيار أثاث منزلنا معي .. تحملت كثيرا، لكن عندما حكيت لخطيبتي عن أحد أسراري المخجلة، لأتفاجئ بأمها تعايرني به بعدها بعدة أيام أثر خلاف طارئ بيننا، حتى تأكدت أن خطيبتي تنقل إليها كل ما يدور بيننا، وهو ما أزعجني للغاية .. ونتيجة لكثرة الخلافات بسبب ذلك الأمر، فسخت خطبتي بعد عدة أشهر لأمر بفترة اكتئاب طويلة بعدها .. ويبدو أن أهل خطيبتي تعلموا الدرس جيدا، فلم تتدخل أمها في حياتها عندما خطبت للمرة الثانية، لتستقر في بيت زوجها بعد أقل من عام من انفصالنا ..

اجتهدت لسنوات في الغربة فلم أتزوج إلا متأخرا بعد أن عدت أخيرا إلى وطني .. عانيت كثيرا بعد عودتي ففرص العمل هنا

قليلة، والمشروع الذي افتتحته لم يحقق الربح المتوقع بسبب تقلب السوق .. وهو ما دعا عدد من زملائي في الخارج إلى تأجيل فكرة العودة إلى الوطن إلى أن تتحسن الأحوال بعد أن أبديت لهم ندمي الشديد فأنقذتهم بالتالي من مصير مماثل .. وعندما قررت وضع جزء من أموالي في شركة شهيرة لتوظيف الأموال، لأتفاجئ بعد أشهر قليلة بامتناع صاحبها عن سداد الأرباح الشهرية، حتى بدأت أشكو للمقربين مني مما دفع كثير منهم إلى التراجع عن استثمار أموالهم في الشركة .. وهو ما أسعدهم بالتأكيد لاحقا بعد إعلان الشركة لإفلاسها ونجاتهم مما وقعت به

بعد إنجاب ابني الوحيد، طلبت من زوجتي التضحية بعملها، خاصة أنه يستهلك ساعات طويلة من يومها وتعود مرهقة تماما فتهمل القيام بواجباتها، وراتبها يضيع معظمه في المواصلات وشراء الملابس ودفع اشتراك الحضانة .. وعندما تعرض ابني لنزلة برد وأهملت زوجتي الذهاب للطبيب بسبب انشغالها في العمل فساءت حالته، تزايدت خلافتنا بسبب ذلك، ليقع الطلاق بيننا في النهاية .. الغريب أنه بعض انفصالنا بعامين فقط تقدم إليها زميل في العمل للزواج، لكنه اشترط أن تتخلى عن وظيفتها أولا، لتوافق دون تردد .. وها هي الآن تعيش بسعادة مع زوجها وأطفالها .. بينما لم أتزوج من وقتها

ولم أنسى بأي حال عندما ظهرت في بث مباشر بعد أن أوقفني مذيع شهير في الشارع ليلقي علي بضع أسئلة، فأجبته بصورة عفوية، منتقدا ما تمر به البلاد من تضييق أمني شديد، ساخرا من قرارات الحكومة التي تضيف أعباء جديدة على المواطن كل يوم .. لم أكن أعلم أني سأقضي عدة أيام في الحبس بعدها بسبب ذلك،

وأني سأخرج بصعوبة بعد تجربة مريرة لا أود تكرارها بأي حال، وأخسر عملي ويتم اتهامي بتشويه صورة الوطن بل وانتمائي إلى جماعات متطرفة لأصبح دون قصد عبرة لكل من يحاول أن يحذو مثلي

أما أسوأ أيام حياتي، فكانت عندما صارحني الطبيب بإصابتي بنوع نادر من أنواع سرطان نخاع العظام .. ولأن العلاج مكلف ونتائجه ما زالت غير مؤكدة، وافقت بعد تردد عندما تقدم إلى الطبيب لاحقا بعرض من أحد مراكز البحوث الطبية الأجنبية الكبرى لتجربة عدد من العقاقير التجريبية على أمل إيجاد علاج أكثر فعالية للمرض، لأصبح في النهاية بمثابة فأر تجارب مرة أخرى لا أكثر على أمل إنقاذ الآخرين مما أمر به ..

وها أنا ذا الآن أعيش وحيدا بعد أن تولت زوجتي السابقة حضانة ابننا، أعمل بوظيفة صغيرة تفي بالكاد باحتياجاتي، لم أحقق النجاح الذي توقعته وخسرت معظم أموالي وأعاني بشدة بسبب الأدوية التي أتناولها .. يلازمني الشعور بالإحباط في كثير من الأوقات، لكن عزائي الوحيد أني كنت سبب في إسعاد كثير من الناس بصورة أو بأخرى .. ربما كنت حقا، ودون تعمد أو قصد مني، بمثابة تلك الشمعة التي تحترق كي تضئ الطريق للآخرين، الفارق فقط أني لم أرغب أن أخلق كشمعة حمقاء بأي حال يقتصر كل دورها أن تسعد الآخرين باحتراقها .. لكن لا بد لأحدهم على أي حال أن يقوم بذلك الدور من وقت لآخر كي تستمر الحياة

صوت

صعد خشبة المسرح بخفة .. بحماس أمسك الميكروفون وسط تشجيع الحاضرين .. توسط المسرح الكبير تماما فتطلعت نحوه الأبصار بترقب .. رفع يده ليرد تحية البعض، استرجع كلمات أغنيته المفضلة .. ما أن بدأ يدندن بها، حتى اختفى صوته فجأة .. بذل كل جهده دون نتيجة .. خانه صوته في تلك اللحظة فلم يطاوعه .. تزاحمت الجمل أمام عينيه دون أن تمر على لسانه .. توقفت الكلمات تماماً في حلقه .. حاول أن يمنحها الحياة لكنها بعناد أبت أن تخرج للنور، أو تولد على شفتيه .. تولاه ارتباك مفاجئ أمام الجمع المحتشد ..

تسمر في مكانه .. تصبب عرقه رغم برودة الجو .. خذلته قدماه فلم يستطع الحركة لينسحب وينجو من خزى عجزه أمام الناس .. تململ بعض الحاضرين من طول سكونه .. علت تعليقات السخرية من كل جانب لتصل بوضوح إلى مسامعه، دوت كرصاصات رحمة لتقضي على ما تبقى من تماسكه .. استجمع عزمه وكل طاقته، حاول للمرة الأخيرة لعل صوته ينساب دون نجاح .. لم يستطع حتى أن يتمتم بأي جملة تنقذ بعضاً من بقايا كرامته أمام الناس .. اتسعت دائرة السخرية منه لتحاصره وتزيد أوجاعه .. لم ينقذه سوى صديق قديم تدخل ليتناول الميكروفون برفق منه مشيراً إلى الفرقة ببدء العزف

هبط المسرح يداري خجله، لم تشفع له سنوات عمره الستين، أو مكانته عند الناس من أن يرجموه بكلماتهم .. ليته انتبه للأمر مبكراً

وعالج نفسه من مرضه كي لا يتعرض علناً لذل مواقف كتلك .. جرجر قدميه بعيداً مطرق الرأس، وهو من اعتاد دوماً أن لا يمشي بين الناس إلا مرفوع الهامة .. ابتعد تثقله قسوة الموقف، ويرهقه وعد قديم قطعه على نفسه، وجدده مع السنوات فلم يتمكن من الوفاء به كما حلم وتمنى ..

وعدها أن يغني ليلة زفافها .. و لكنه لم يتمكن من تنفيذ وعده

دوت الموسيقى في المكان .. انطوى بعيداً في ركن خاص يمكنه من رؤية المسرح و يحميه من تطفل أعين الناس .. ما زال صدى ألسنتهم يصل إليه ليعمق جراحه .. داهمته الأزمة فجاة فأصابت لسانه وليتها أصابت سمعه حتى لا تصل إليه كل تلك الإهانات .. استند قليلا على حائط بجواره بيد ترتجف .. شعر بوهن غريب يدب في أوصاله، ليريح جسده الذابل على الجدار المتهالك ..

التقط أنفاسه المضطربة بصعوبة، رغم وفرة الهواء لا يشعر سوى بالقليل منه ينفذ إلى أعماقه .. عانقته الذكريات في تلك اللحظة فلم يهرب منها .. تذكر مرض لاحقه لسنوات طوال لم يستطع الفكاك من أسره .. أطرق برأسه للأرض وهو يسترجع دون وعي بدايات مأساته ..

جندي بسيط وقتها يحمل عبء أرض ووطن وسماء يدافع عنها، ويدفع غائلة عدو غاشم عن تدنيس جزء منها .. رابضت وحدته داخل أرض الفيروز والدم والتيه أثناء النكسة .. انسحبت وحدته بأكملها تتساقط على رمال الصحراء هرباً من قتال مفاجئ تحمسوا له طويلاً بلا استعداد وهزيمة لا يد لهم فيها .. حاصرتهم فرقة من العدو ونجح في الهرب وحده .. بعينيه شاهد زملائه ينبشون

قبورهم بأيديهم قبل أن ترديهم رصاصات الغدر .. كتم أنفاسه وصوته مانعاً نفسه من الصراخ .. عندما عاد سألوه عن زملائه فلم يتكلم .. لم يتعمد ذلك ولكن عندما فتح فمه لم ينساب صوته .. اكتشف أنه ضاع منه على رمال الصحراء مع أشياء أخرى أكثر قيمة .. شخص الطبيب حالته بأزمة عصبية حادة أفقدته القدرة على النطق .. ولأسابيع ظل حبيس الصمت حتى شفي تدريجيا ..

ولكنه فقد النطق مرة أخرى بعد أن ظن أنه تخلص من عجزه .. وعلى الأرض نفسها وتحت السماء التي شهدت انكساره .. تلك المرة بعدها بست سنوات يوم تمكن من الأخذ بثأره، وكتب على الرمال التي احتضنت جثث زملائه انتصار يعيد به حق الشهيد .. عبر القناة يكاد يطير شوقاً لأرضه المغتصبة مع أول أفواج العابرين .. يكاد يجزم أن قلبه توقف وهو يشاهد العلم يرتفع مجدداً على الرمال الصفراء باهظة الكلفة والثمن .. لثوان وقف عاجز عن الكلام يشهد بعينيه راية وطنه ترفرف عاليا، وصيحات النصر تبلغ عنان سماء لم يظن يوماً أنه سيقف تحتها حراً مرفوع الرأس مرة أخرى .. أيقظته صيحات الجنود ليواصل التقدم هاتفاً معهم بحماس بكل جزء من جسده إلا لسانه العاجز

سرحوه بعد الحرب بعد أن اكتشفوا صعوبة علاجه .. أوصاه الطبيب بضرورة مواصلة العلاج حتى لا يتعرض لمزيد من الانتكاسات مستقبلاً .. استغرق الأمر وقتاً أطول تلك المرة ليعود إلى حالته الطبيعية .. ويعاوده صوته الغائب .. رجع لدنياه وحياته .. معركة جديدة يواجهها بلا سلاح .. دوامة تصهره تحت وطأتها ومع خصوم لم يعد بقادر على تمييزهم .. عانى كثيراً لكنه نجح في عمله .. تزوج .. اكتسب محبة الناس وساعده على ذلك

إخلاصه وأمانته، وعذوبة صوت غير مستقر .. قالوا أن له صوتاً جميل رغم هجرانه المتواصل له .. أحيى عدد من أفراح زملائه وانطلق صوته بالغناء في كل مناسبة؛ صوت شجي مميز تشوبه نبرة حزن واضحة تترك أثراً في أذن من يسمعها لا يمكن أن ينسى بسهولة .. مضت حياته لفترة بسلام وظن أنه تخلص من عاهته ولكنه عاد ليفقد صوته بعد أن أيقن أنه نجا من فخ المرض .. هاجمته الأزمة أكثر من مرة، ودون استعداد منه .. أولها يوم ولادة ابنته الوحيدة بعد ست سنوات من الزواج يأس خلالها من الإنجاب .. رآها تفتح عينيها للحياة لتستقر نظراتها الأولى عليه، فيحتضنها بلهفة وصمت غريب طال لفترة .. عاد إليه صوته الضال سريعاً، قبل أن تتكرر محنته بعد عدة سنوات فقط .. ضاع منه يوم تلاشى أمله في علاج زوجته وهو يراها عاجزاً تذبل ببطء على فراش المرض دون أن يستطع تحمل تكاليف علاجها في الخارج .. وقف يومها بجوارها وهو يراها ببطء تفارق الحياة، تشبثت بيده في آخر لحظاتهما معاً في حياة طالما أرهقته ليحاول أن يتكلم دون أن يفلح .. لم يندم على ضياع صوته من قبل إلا لحظتها فقط .. لكنه وللمرة الأولى أيضاً، يشعر بالعرفان لعجزه .. غياب صوته أعفاه من التعبير عن تيار الألم العنيف الذي اجتاحه بعد رحليها بكلمات لم تكن لتعبر بأي حال عما بداخله ..

ظن أنها آخر أزماته، وأن الدنيا لم يعد في جعبتها المزيد له .. لكن ضربته الأزمة مجدداً بقوة وأكثر من مرة خلاف كل توقعاته .. يوم انطلق مع تيار المظاهرات العارمة، وسط أناس لا تختلف كثيراً عنه خرجت تملأ الشوارع لتندد بغلاء يتفشى كوباء مسعور يهدد حياتهم .. وصودر صوته مرغماً يوم فقد عمله في المصنع

وأغلقت أمامه أبواب المسئولين وقبلها آذانهم لشكواه فعاد لبيته محطماً يريد أن يصرخ دون أن يتمكن من ذلك.. عشرين عاماً يخدم في مصنع باعته الحكومة بمن فيه لرجل أعمال سرعان ما سرحهم بحجة توفير النفقات ليكتشف أن لا صوت داخل الوطن يعلو فوق صوت المال.. يومها لم يشعر بالندم أو الأسف لضياع صوت لم يعد له قيمة، في وطن يؤمن أن صوت المواطن الثائر عورة .. انتابته الأزمة كثيراً فلم يعد يتذكر كم مرة صرعته وإن اختلفت شدتها وقوتها فلم تتجاوز يوماً في بعض الأحيان، وطالت لأحيان أخرى حتى ظن أنه ليس بقادر على البراء والتخلص منها .. الغريب أنها أصابته حتى في أوقات فرحه .. ما زال يتذكر يوم صعد منتخب بلاده لكأس العالم فرقص يومها فرحاً كطفل صغير في عشق وطن لا يبادله الشعور نفسه .. أو عندما علم أن أديب بسيط من وطنه ولد وسكن في حارة مجاروة له، وأبدع في وصف حارته الشعبية الصغيرة المهملة قد فاز بتلك الجائزة العالمية .. أو لعله يوم تخرجت ابنته من كليتها، وعندما أحيل على المعاش أخيرا بعد سنوات من وظيفته الثانية وبإعلان صريح آلمه عن انتهاء صلاحيته كيد منتجة .. ورغم كل أزماته لم يحاول أو يسعى بجدية كي يعالج مرضه .. ربما لأنه بات يحب أحيانا عالم الصمت .. أو لعل الأمر بأكمله تحول إلى تذكار يحمله جندى قديم تخليداً لانتصاره، كمحارب يعتز بندبة على جسده تذكره بمعركة عنيدة خاضها بشجاعة ولا يرغب بأي حال أن تزول

اليوم فقد صوته مع أشياء أكثر أهمية .. انشغل بترتيبات الفرح فلم يشعر بضياعه، على الأقل في بداية اليوم كان طبيعياً .. نقل الكراسي وساعد في تعليق الأضواء بحماس رغم مرضه .. تأكد

من كل شئ بنفسه .. عندما بدأ توافد المدعوين وشغلت الفرقة الموسيقية مكانها على المسرح، هرع لرؤية ابنته .. شق طريقه بجهد بين جموع من الناس تصطدم به وتشاركه احتفاله .. قابل كل من تعثر به في طريقه بابتسامة .. وصل أخيراً بلهفة .. طرق على باب حجرتها .. استقبلته رائحة الفرح وهو يدلف للداخل .. غادرت بعض صديقاتها الغرفة فحياهن بود ممتنا من قلبه لتلك اللحظات الخاصة التي يمنحنها له مع ابنته .. تأمل صغيرته فخفق قلبه .. لثوان بهره الموقف فنسى كل ما تعلمه من كلمات وتراقصت الأحرف أمام عينيه فلم يجد منها ما يليق ليعبر عما يشعر به.. طفلته الصغيرة التي تعلمت من سنوات لا تبدو له بعيدة أن تمشي ويدها بيده تسندها كي لا تتعثر، كبرت فجأة لتختال أمامه ليلة زفافها في فستان أبيض يزيدها براءة وجمالاً .. زهرة برية نضجت في فصلها الربيعي المفضل فتفتحت أوراقها لتغمر عالمه القاسي بشذاها .. تقدم منها يقدم ساقاً ويؤخر الأخرى .. يخشى أن يلمسها فيفسد النصف المشرق من حياته الذي وصل إلى قمة بهاءه في تلك اللحظة .. لم يستطع سوى أن يحتضنها بخفة قدر إمكانه وينسحب سريعاً قبل أن تفضحه عبراته

عاد للمسرح .. حلق في سموات عالية من النشوة فأراد أن يشاركها مع الناس .. تذكر وعده .. استرجع كلمات أفضل أغانيه .. انسابت الموسيقى في رأسه .. تنفس بعمق .. فتح فمه ليكتشف أنه ترك صوته مع ابنته .. هدية متواضعة لم يستطع أن يمنع نفسه من منحها إياه في أفضل لحظات حياتها

تسمر لدقائق في ركنه البعيد يرقب الحركة على المسرح .. كاد أن يفسد فرح ابنته .. زهرته الوحيدة في عالم أدمته أشواكه كثيراً ..

تصبب عرقاً يعوض شعور بالذنب يجتاحه .. نكس رأسه تغرقه هموم أكبر من قدرته على التأقلم معها .. سرح في عالم آخر يجلد نفسه فيه بلا رحمة ... فجأة انسابت الموسيقى لتصل إليه وارتفع معها صخب محبب .. انتفض بلا وعي .. تحرك .. تطلع إلى بيته حيث تهبط عروسته تتلقاها الأضواء .. تجر فستانها بيد طالما احتواها بين كفيه وهي صغيرة وأحصى عليها كل أمانيه وأولها أن يراها عروس جميلة تزف أمامه يغني في فرحها .. حاول ببصره جاهداً أن يخترق الحشود ليراها .. ابتسامة فرح تضئ وجهها ومعها توردت وجنتاها فزادتها حسناُ ورونقاً .. تقدمت إلى خشبة المسرح تسبقها الموسيقى وتتناثر فوقها ورود الفرح .. نطقت عيناه في تلك اللحظة بكل الكلمات التي احتجزها لسانه .. حلق معها في سماء تصطف فيها نجومها لتهنئته .. رقص قلبه من الطرب مع موسيقى فرح لا يسمعها سواه .. رفع عينيه دون وعي للسماء يتمتم بالشكر .. لسماء وحدها يمكن أن تسمع صوته دون أن يفتح فمه

هوس

"لماذا يتصرف البعض بكل ذلك القدر من الهوس عند رؤية أحد مشاهير الفنانين، وما الذي يميز أي فنان عن غيره من الناس بأي حال، ويبرر تلك المبالغة في رد الفعل .. أتحدث عن تجربة شخصية عانيت منها طويلا ولم أشأ البوح بها لسنوات، وما زلت أعاني منها دون بارقة أمل في التخلص من آثارها السلبية عما قريب ..

منذ بداية أعمالي وأنا أحظى باهتمام الناس، وهو ما أسعدني بالتأكيد، لكن الاهتمام المبالغ الذي لا يحكمه منطق ويتجاوز حدود المعقول يأت دوما بنتائج عكسية، ولأعترف أنه يعكر صفو حياتي ويفرض مزيد من القيود عليها يوما بعد آخر .. مما بات يضعني اليوم أمام خيارين كلاهما صعب؛ التخلي عن المهنة التي أعشقها ولا أكاد أتقن غيرها، أو الاستمرار فيها على حساب سلامتي النفسية ومساحتى الشخصية التي يواصل الآخرون اختراقها مرارا بصورة تثير الجنون

أنا مجرد ممثل لا أكثر، لست بنبي أو قديس حتى أحظى بكل ذلك الحب والاهتمام والتقدير .. إنسان عادي لست أفضل منكم في شئ، ولا أقول ذلك من باب إدعاء التواضع الزائف، ولكن إقرارا لحقائق لا ينكرها أي عقل .. عملي فقط يشاهده الملايين بحكم طبيعته، ذلك هو الفارق، لكن ما تقوم به قد يكون أكثر أهمية وقيمة للآخرين مما أقدمه دون أن يحظ بالشهرة نفسها .. سواء كنت عامل أو طبيب أو مهندس أو غير ذلك، مهن منتجة كلها لا يختلف

اثنان على قيمتها أو أهميتها، بينما قيمة أعمالي لا يتفق عليها الجميع، ولا تتعدى التسلية الخالية من أي مغزى هادف أو عمق في كثير من الأحيان .. بل يزعم البعض أن كثير من أعمالنا في الواقع تضر ولا تفيد، ولهم الحق في ذلك ..

ثم أني جزء من منظومة، وإليها وحدها يرجع النجاح إن تحقق .. لما لا يهرع الناس إلى التصوير مع المؤلف أو مدير الإنتاج أو حامل الكاميرا، أو أي فرد من فريق العمل الضخم الذي لا أمثل سوى واجهته فقط .. الأمر يشبه أن تذهب إلى مطعم ويعجبك بشدة مذاق وجبة فتشكر النادل من قلبك وتربت على كتفه تقديرا ثم تمنحه إكرامية ضخمة، وتغفل أن هناك من قضى ساعات يعمل بكد لإعداد الوجبة، وأن كل ما قام به النادل هو أن قدمها لك فقط .. لما لا تطلب بالمقابل التصوير مع عامل النظافة في الشارع الذي تقطن به أو حارس البناية والذي يقدم لك بالتأكيد خدمات مباشرة أكثر قيمة معظم الوقت مما أقدمه .. ثم ما الذي تجنيه بأي حال من السعي لمعرفة أخبار نجمك المفضل ومتابعة حياته الشخصية بفضول، في النهاية ما أعجبك هو العمل الفني نفسه الذي شارك في تقديمه، المنتج النهائي، المحتوى الذي يحمل قيمة ويثير داخلك كل تلك المشاعر ويترك أثرا في نفسك، ذلك هو ما يهم حقا، فلما تهتم إلى حد الهوس بأحد صناعه وتتطفل مع وسائل الإعلام على حياته الشخصية

لا أدري إن كان ما أقوله يحمل إساءة لأحد، لهذا أعتذر مقدما .. تلك أول مرة أكتب رأي مطول وأتحدث من القلب، ولم أتكلم إلا بعد أن أرهقني الأمر حقا وفشلت في اتباع نصيحة من هم أكثر خبرة بالتعامل مع ما كل ما أمر به بمرونة شديدة، فأنا لا أمتلك

ذلك القدر من المرونة، ولا يمكنني أن أمثل طوال الوقت حتى أحوذ رضا الناس .. أرغب حقا أن أنطلق وأعيش حياتي بعفوية، دون اهتمام زائد يتخطى حدود المنطق وتطفل غريب يجبرني على قتل عفويتي والتصنع طوال الوقت .. كل ما أتمناه فقط أن نفكر بقدر أكبر من التعقل والموضوعية، بعيدا عن أي آراء مسبقة أو نمطية تناقلناها جيل وراء آخر، وتوجهات حمقاء صنعتها طويلا وسائل الإعلام، والتي تمنح نجوم من ورق شهرة كبيرة قد لا يستحقونها، وتبالغ في قيمة أعمالهم والتي لن توقف بأي حال عجلة الحياة حال اختفاءها .. وأن نعيد التفكير في وسيلة كي تصل مشاعركم إلينا دون أذى في النهاية، مشاعر تقدير عقلانية دون هوس أو مبالغة"

بمجرد أن انتهى، حتى ضغط زر الإرسال .. لم يقم بمراجعة ما كتبه، ليتم مشاركة المنشور على صفحته الشخصية على الفور .. ويتنهد في ارتياح

****

- فعلت كما طلبت مني ..

قالها وهو يسترخي على الأريكة، تطلعت إليه لبرهة دون كلام .. كل ما طلبته أن يكون صريحا مع جمهوره، وبخاصة بعد كل ما لاقاه بسبب شهرته الطاغية كممثل، وهو ما دفعه إلى زيارتي في المقام الأول

هززت رأسي مؤكدا:

- الهوس بالشهرة يتحول أحيانا إلى مرض يصعب التخلص منه .. لكنها ليست مسؤوليتك وحدك، بل مسؤولية الناس ممن يصنعون من كل فنان شهير صنما يعبدونه .. ويفرحون إن حصلوا على جزء ولو ضئيل من وقته .. الجمهور بحاجة لصدمة بالفعل تدفعهم للتعقل قليلا .. وكلامك دون رتوش وبعفوية تامة قد يدفعهم لذلك .. أتمنى فقط أن يقدر الناس صراحتك

- في الواقع قرأت تعليقات مشجعة .. وأخرى محبطة تصفني بإدعاء الأمر وتقمص دور الضحية لكسب تعاطف الناس، بل والغرور الشديد وإهانة الجماهير ..

- ألم نتفق أن لا تقرأ التعليقات ..

- لم أستطع أن أمنع فضولي .. أعتذر لذلك

- لا بأس .. الشهرة مفسدة كما يقولون، لمن يبحث عنها، ولمن يعاني منها .. كان لا بد من المواجهة لعل البعض يتفهم ويمنحك المساحة الشخصية التي تتمناها .. وربما يدفع كلامك البعض أيضا لإعادة التفكير في الشهرة التي يرغبون بقوة في الوصول إليها بأي وسيلة، حتى يتحول الأمر في النهاية إلى هوس مرضي لديهم، دون أن يقدروا بطبيعة الحال جانبها السلبي .. يهمني أن أعرف كيف تشعر الآن بعد أن عبرت عن رأيك ..

- أشعر بارتياح حقا .. غاب عني ذلك الشعور من فترة طويلة .. تصرفات بعض الجمهور مؤخرا باتت تخنق حياتي وتكاد تدفعني للجنون .. شكرا لنصحيتك، منذ بداية علاجي معك وأنا أشعر

بتحسن، والخطوة الأخيرة كانت مهمة لأتخلص من هوس المعجبين بي .. لكن ..

- لكن ماذا .. تبدو محبطا؟

- حسنا .. لا أخفي عليك، توقعت فقط رد فعل أكبر، ذلك ما يشعرني بالحنق قليلا .. تفقدت صفحتي ذلك الصباح، لم يحظ المنشور سوى بأقل من مائة ألف تعليق فقط طوال الليل، وعشرات الآلاف من علامات الإعجاب .. توقعت أن تكون شعبيتي أكبر من ذلك بكثير .. تخيل .. ذلك الممثل الشاب السخيف الذي شاركني بطولة فيلمي الأخير، نشر صورة بالأمس من كواليس عمله الجديد، مجرد صورة حمقاء بلا قيمة، فحصدت ما يقارب مائتي ألف تعليق خلال ساعتين فقط .. لا أكاد أصدق ذلك .. مما يدفعني للشعور بخيبة أمل حقا

تلك المرة لم أعلق، تنفست فقط بإحباط وأنا أتطلع إلى مريضي

****

بمجرد أن أنهيت عملي في العيادة، حتى توجهت سريعا إلى حفل عيد ميلاد ابنة أحد جيراننا وأنا أتطلع للساعة من وقت لآخر بقلق .. تفاجئت بدعوة جاري من عدة أيام فقط رغم فتور العلاقات بيننا من فترة، بل أنه اتصل اليوم ليؤكد على ضرورة حضوري

وصلت متأخرا مع عائلتي، بدأت الحفلة بالفعل، استقبلنا جارنا سريعا بالترحاب، دعاني للقاء عدد من الجيران وبعض زملائه .. اندمجت معهم لدقائق، تشعبت النقاشات بيننا .. سألني أحدهم عن عملي، فأخبرته قليلا عنه، قبل أن يفاجأني جاري:

- سمعت أنك تعالج الممثل المشهور "ص. م"

لم يظهر على وجهي أي انفعال، سألت بهدوء:

- من قال ذلك؟

ناولني مجلة فنية سريعا .. لأول مرة أرى اسمي في مجلة، والتي تتحدث عن معاناة الفنان الشهير من أزمة نفسية خانقة، اضطررته إلى اللجوء إلى عيادة طبيب نفسي بسرية تامة، قبل أن تنجح المجلة في سعيها لكشف ملابسات الأمر للجمهور، مع ذكر اسمي بوضوح .. بعض ما كتب صحيح بالطبع، لم أتفاجئ رغم ذلك، خاصة أن الممرضة لدي هي من سربت الخبر لابن عمها الصحفي كاتب المقال .. لكن المقال ملئ بمبالغات أيضا عن الفنان، توقعت ذلك على أي حال ..

سادت لحظة صمت، رفعت عيني عن المجلة .. لمحت عيون الجميع تتطلع إلى بإعجاب وترقب بانتظار إجابتي .. ابتسمت بهدوء ثم أجبت بعد لحظة:

- لا يمكنني تأكيد ذلك بالطبع .. تلك أسرار العمل كما تعلمون .. ليست أول مرة أتعرض لتلك الشائعات على أي حال، لكن طبيعة عملي تجبرنا دوما على الصمت .. تعاملت مع حالات لمشاهير من قبل، ولم أفشي أسرار أي منهم، ولن أفعل ذلك الآن .. مساكين حقا، يكفي ما يمرون به من معاناة .. تلك ضريبة الشهرة والهوس الجنوني بها على أي حال .. والغريب أن البعض يسعى إليها وبأي وسيلة حقا، مهما كانت ..

شقاوة

أمسك القلم .. استجمع أفكاره بصعوبة .. تراءت له فكرة الرواية الجديدة التى يكتبها .. نقر بأطراف أصابعه بعصبية على طاولة المكتب .. تطلع للصفحات البيضاء الفارغة المحبطة أمامه .. عبث بقلمه متأهباً يأمل أن يخرج من حالة السكون واللاكتابة التى تسيطر عليه مؤخراً .. أنهى كوب القهوة وأشعل سيجارته الثالثة .. سرح ببصره تجاه سقف الغرفة، طال ترقبه بانتظار الشرارة الأولى لأفكاره .. كاد أن ييأس قبل أن يشعر بدبيب الأفكار داخل رأسه .. أسند رأسه على راحة يده اليسرى وبدأ الكتابة، ببطء أولاً ثم بسرعة تدريجياً لاستيعاب تدفق أفكاره التي تتزايد بوتيرة متسارعة، وكأنها تنتهز الفرصة لتخرج إلى النور بعد أن قيد حريتها طويلا .. قطع حبل أفكاره فجأة صوت باب غرفة مكتبه وهو يفتح .. تطلع تجاه الباب بغضب .. كم مرة طلب أن لا يزعجه أحد وهو يكتب .. لمح ابنته الوحيدة ذات العامين، تطل مترددة برأسها الصغير وهي تحاول أن تزيح الباب الضخم بصعوبة .. نجحت بعد جهد .. لثوان توقفت لتمسح المكان ببصرها بفضول، قبل أن تقع عيناها فجأة عليه .. ابتسمت على الفور وهي تندفع بمرح للداخل .. قطب حاجبيه ورسم على وجهه كل علامات الغضب التى يمكنه اصطناعها لعلها تجفل وتغادر حجرة المكتب، ولكنها لم تأبه لتعبيرات وجهه العابسة .. اقتربت منه بعفوية بخطوات قصيرة، تعثرت في طرف السجادة فقفز بلا وعي من كرسيه، ولكنها نهضت بسرعة دون أن تبالي بالألم .. واصلت ركضها بحماس تجاهه، التفت حول المكتب سريعا واحتضنته،

بيدها بدأت تشير إلى الخارج، همهمت "تون .. تون" .. ربما كانت تشاهد ذلك الكارتون الأحمق، أو لعلها تريده أن يتجه للصالة ويفتح لها التلفاز لمشاهدته .. زوجته تحرص أن لا تشاهد التلفاز أكثر من اللازم خاصت أنها تعلقت به بشدة في الفترة الأخيرة فلم تعد تفارقه معظم الوقت .. أشار لها بيده كى تخرج ولكنها تجاهلته وهي ما زالت تشير للخارج "روت .. روت" .. لم يفهم معنى الكلمة الجديدة .. يغيظه أنه لا يفهمها أحياناً .. منذ بدأت الكلام وهو لا يستوعب مفردات لغتها المبكرة .. أمها هي من تفعل، لكنها ليست بجواره الآن لتتولى الترجمة .. أشار بيده للخارج بحزم أكبر، ولكنها تسمرت في مكانها لثوان دون أن تفهم .. ربما غاظها أنه لم يتحرك، عبس وجهها وتطلعت إليه لبرهة بعناد، ثم لمعت عيناها فجأة .. لمحت قلمه الذهبي يستقر على طرف المكتب .. قفزت مسرعة على قدم واحدة وهي تحاول بيدها الصغيرة الوصول إليه .. هب فزعا على الفور .. من عدة أيام وضعت القلم داخل فمها وكأنها تريد إدراك ماهيته عبر حاسة التذوق لديها، لو ابتلعت القلم وقتها لتسبب الأمر بكارثة حقاً ولكنه انتبه في اللحظة الأخيرة .. أزاح القلم المستقر على المكتب بطرف يده بعيداً .. أصرت على المحاولة فقفزت بجهد أكبر للوصول إليه ولكنها لم تنجح .. تطلعت إليه حانقة، ضمت ذراعيها على صدرها بغضب، خرجت يائسة وتركت الباب خلفها مفتوحاً .. بالتأكيد مستاءة هي منه الآن وربما خاصمته .. سيصالحها لاحقاً .. عليه أن ينتهى من تلك الرواية التى تراوغه مؤخرا وتستعصى على قلمه ..

نظر للأوراق أمامه .. أعاد قراءة آخر سطر كتبه .. شرد ببصره بعيداً للحظات .. وضع طرف القلم داخل فمه بلا وعي كعادته

عندما يستغرق في التفكير .. نقر على سطح المكتب نقرات خفيفة بعصبية .. امتصه التفكير إلى عوالم أخرى، تنقل بينها لا يكاد يستقر في أي منها .. تململ على الكرسي .. لمعت عيناه فجأة فانكب على الورق، بدأ أخيرا يقتنص الأحداث بنجاح، يروضها كيفما يشاء .. أنكب على الأورق بحماس .. لم ينتهى سوى من سطر واحد، حتى سمع وقع ضجة بالخارج .. تأفف على الفور .. تذكر أن ابنته هناك .. ربما وقعت من فوق كرسي الصالة كالعادة .. قفز من مقعده برعب، توجه للخارج سريعا، توقف في منتصف الصالة ليرى ابنته تجلس على الكرسي المقابل للأريكة بهدوء ظاهري .. تطلع حوله بارتياب، هاله المنظر .. يبدو أنها حاولت الوصول لريموت التلفاز الموضوع أعلى المكتبة الصغيرة ففشلت، وبدلاً من الحصول عليه أطاحت ببعض الكتب وقطعة أكسسوار زجاجية على هيئة سيارة اشترتها زوجته مؤخراً .. كانت تريد ريموت التلفاز إذن، ربما يفسر ذلك كلماتها السابقة .. تطلع إليها بغضب حقيقي، ويبدو أنها شعرت بالذنب فجلست ساكنة وقد انكمش جسدها الصغير قليلاً .. تساءل لما اختفت زوجته .. توجه إلى المطبخ، لم تكن هناك .. سمع صوت جلبة قادمة من غرفة النوم، اتجه إلى هناك ليتفاجئ بها تحاول تنظيف غرفة النوم الكبيرة وقد أزاحت معظم أثاثها .. لا مفر إذن من العودة للصالة والمكوث مع ابنته إلى أن تنتهي زوجته، لا يمكن أن يترك صغيرته المشاغبة بمفردها

هز رأسه ساخطاً، تطلع لابنته التى استكانت في مكانها فلم تتحرك .. توجه إلى المكتب وأزاح الباب بعصبية، التقط أوراقه، ثم عاد إلى الصالة ليستقر على الأريكة .. حاول استرداد هدوئه .. قرر

معاودة الكتابة وهو يراقبها، تبدو ساكنة على غير العادة فلن تزعجه .. وضع الأوراق على أحد وسائد الأريكة، تطلع لابنته مرة أخرى ليتأكد من التزامها، ثم سرح ببصره بعيداً .. كتب سطراً ثم مسحه بسرعة، خلع نظارته ثم بدأ يهرش في رأسه .. سرح بخياله يحاول جاهداً استجماع خيوط الرواية التى بدأت تهرب منه ولا تستقر في خياله .. لثوان اكتفي بالتحديق في الورق وسقف الغرفة والأثاث وكل ما حوله دون أن يدون شيئا .. ثم بدأ يفقد إدراكه بعالم الواقع، ليستقر بوعيه في عالم آخر تدريجياً .. بدأت تتراءى أمام عينيه الكلمات، تكونت منها الجمل سريعاً .. تتقافز وتتلاحق داخل عقله في عرض سريع .. هدأت حركته تماماً يحاول التقاطها .. شرد ببصره لثوان، تحسس القلم بيده دون وعي، تشبث به فجأة، ثم انكب على الورق .. عاود الكتابة ببطء أولاً ثم بسرعة تدريجياً .. اندمج تماماً وسط أحداث عالم جديد يحاول نقله على الورق .. في خضم انشغاله لم ينتبه لابنته وهي تنهض من مكانها، تقترب منه، ثم تجلس على السجادة أمامه مباشرة .. تلهو ببعض الدمى حولها .. تضغط على بطن لعبتها المفضلة؛ دب كبير اشتراه في عيد ميلادها الماضي فتعلقت به بشدة .. لم يكد ينتهي من كتابة الورقة الأولى حتى انطلق صوت موسيقى أجوف من اللعبة .. انتفض بلا وعي، نحى الأوراق جانباً بعد أن قطع تركيزه الصوت المفاجئ .. التفت لابنته، لكنها تلك المرة تطلعت إليه ببراءة .. رفعت الدب عالياً بحماس وهي تهتف "بب" .. ربما تدعوه للعب معها .. هز رأسه حانقا .. يا له من كابوس مزعج .. من بضعة أشهر فقط كان يرقبها بلهفة وحماس شديد وهي تخطو خطواتها الأولى .. تشبثت يومها بيده وهي تحاول فقط أن تقف على قدميها، راقبها بفرح وهي تنجح في المشي لوحدها دون

مساعدة، بدت كشخص مترنح، نجحت في المشي بضع خطوات ولكنها سقطت بسرعة .. وقتها أخرج كاميرا الفيديو وانتظر بلا كلل لساعات كي يسجل خطواتها المبكرة تلك عندما حاولت مجددا .. بدأ في تلك اللحظة فقط يشعر بالندم لتلهفه السابق؛ منذ بدأت تقف على قدميها وتتحرك بثبات وهي لا تكاد تستقر في مكان، وتطيح بكل ما تطوله يداها، لتتغير معالم المنزل كثيرا من وقتها، وتثير أعصابه طول الوقت

أزاح الوسائد غاضباً .. نهض فاتجه نحوها .. رفعها بين يديه ليستقر بها على الأريكة بجواره .. جلب لها لعبة أخرى، والتقط الدب ليطيح به خلف الأريكة .. انشغلت لثوان باللعبة الجديدة .. تنهد بعمق، عاد لأوراقه بنفاذ صبر .. قرأ ما كتبه سريعاً، ضاع تدفق أفكاره .. وضع الأوراق على ساقيه .. حاول استرداد بقايا خياله السابق .. لم يفلح .. تسربت الرؤى السابقة كأنها لم تكن .. دار ببصره في المكان .. تبدو الصالة في حالة فوضى رغم جهود زوجته، طفلته شقية ليعترف بذلك، هز رأسه كاظماً غيظه؛ يحب النظام بطبعه ولا يميل للفوضى .. تنفس بعمق، لا يريد التفكير في أى شئ الآن سوى الرواية العنيدة التى يكتبها من عدة أشهر ولم ينتهي منها بعد .. وضع القلم داخل فمه وعض عليه بأسنانه وهو يعتصر ذهنه المكدود للتحليق في سماء الخيال مجددا .. لدقائق لم يفلح .. تململ على كرسيه .. ثم لمعت في ذهنه فكرة ما، استحوذت عليه .. ابتسم دون وعي بعد أن نجح في استدراجها .. رسم تفاصيلها سريعا داخل عقله .. عاد للأوراق بسرعة .. بيده تحسس مجدداً موضع القلم بحماس للعودة للكتابة، ليتفاجئ باختفاءه! .. لم يكن القلم بجواره كما تركه لآخر مرة .. فتش بين

الأوراق بجنون،.ثم نظر أسفل قدميه دون أن يعثر عليه، نهض وتحسس الأريكة دون جدوى، أطاح بكل الوسائد جانباً بغضب .. لم ينتبه إلا متأخرا لابنته التي تجلس بجواره وهي تمسك بصعوبة بقلم كبير في راحة يدها الصغيرة، ترسم بمرح خطوطاً عشوائية على ذراعيها .. سحب القلم منها بسرعة وقد فقد أعصابه، علا صوته دون وعي وهو ينتهرها تلك المرة بغضب حقيقي .. انكمشت وهي تتعرض لثورة غضبه المفاجئة التي تجهل أسبابها، تراجعت حتى حاصرتها الأريكة فلم يعد يمكنها التراجع أكثر، التصقت بها بشدة .. استعاد هدوء أعصابه .. لم يعتاد أن يفعل ذلك .. اختفي غضبه، ليحل مكانه إحساس بالذنب وهو يرى ملامح الذعر ترتسم بوضوح على وجهها البرئ، ودموعها تناسب منها وهي تتطلع نحوه برعب

زفر أنفاسه بحرارة .. اقترب منها فانكمشت أكثر .. مد يده فجفلت منه .. التصق بها فشعر بجسدها الصغير ينتفض، آلمه أن يتسبب في إثارة ذعرها لتلك الدرجة .. احتضنها بين يديه وهو يحاول تهدئتها .. ترك الحبر خطوطاً على طول ذراعيها .. حضنها بحنان قبل أن يتوجه بها إلى الحمام .. حاول أن يغسل وجهها ويديها، لم تقاومه كعادتها .. انتعشت قليلاً تحت تأثير الماء البارد دون أن تتكلم .. عاد بها للصالة .. جلب علبة ألوان وكراس رسم كبير خاص بها، يعلم أنها تحب التلوين .. فتح العلبة وأخرج منها بعض الألوان بنفسه كي يصالحها .. شاهدته في البداية دون أن تتحرك، لكنها بعد برهة تخلت عن حذرها وتحركت ببطء .. التقطت أحد الألوان وهي تتطلع إليه بحذر .. ابتسم، فتح لها كراس الرسم بنفسه، وبدأ يرسم قليلاً .. تشجعت فبدأت برسم بعض الخطوط

عليها بلا نظام ودون حماس كبير في البداية .. ثم رفعت رأسها وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة كبيرة، قبل أن تبدأ التلوين بنشاط .. تطلع إليها لثوان بمرح، انشغل معها تماماً وهو يشاركها نشاطها..

لاحظ بعد دقائق قليلة أنها تفرك عينيها بشدة .. يراودها النعاس كما يبدو، ربما يحد ذلك من نشاطها .. عاد لأوراقه فجمعها واتجه بها إلى مائدة الطعام .. رص الأوراق أمامه .. ستنشغل في التلوين لدقائق دون أن تشعر بالوقت، ربما يتمكن خلالها من إنهاء ولو ذلك الفصل من الرواية .. بدأ يستجمع أفكاره ولكن بصعوبة تلك المرة .. ما زال غائب الذهن .. توجه للمطبخ وأعد لنفسه سريعاً كوب آخر من القهوة .. وضعه بجانبه وبدأ يحاول استدعاء أفكاره المتناثرة دون أن تستجيب له .. خبط بيده على رأسه .. أطرق قليلاً يحاول التفكير .. باءت كل محاولاته بالفشل .. يحاول أن ينهى رواية تعانده ولا تريد أن تكتمل، ضيف عزيز يصر على رفض دعوته رغم كل المغريات التي قدمها .. ارتشف من كوب القهوة .. أغمض عينيه .. انتبه على حركة بجواره، ابنته تقف بجانبه، صامتة تماماً .. بمجرد أن التفت إليها حتى همهمت بصوت منخفض "مم" .. يبدو أنها جائعة، أو تريد بعض الماء .. ستكبر بسرعة دون أن يتمكن من ترجمة كلماتها المتعثرة الأولى .. ابتسم باستسلام تلك المرة .. ألقى قلمه .. نهض دون غضب .. حملها وتوجه نحو المطبخ .. لم يعد بإمكانه الكتابة على أي حال .. سيقوم بإعداد بعض الطعام لهما بعد أن بدأ يشعر بالجوع، تهوى أن تأكل معه، وربما يشاهد معها ذلك الكارتون الأحمق .. ثم

يصطحبها إلى حجرة نومها، ويظل بجوارها إلى أن تنام في أحضانه كعادتها عندما تنشغل أمها عنها ..

في الصباح توجه إلى دار النشر بعد أن أنهى عمله .. قابل المسئول عن نشر كتابه .. بمجرد أن رآه حتى طلب منه مهلة ثانية لتسليم عمله الجديد، خاصة بعد انتهاء المهلة الأولى دون أن ينجز شيئاً .. هز المسئول رأسه في تفهم .. صافحه قبل أن يغادر وهو يتمتم ببضع كلمات شكر .. بمجرد أن انصرف حتى التفت مسئول النشر إلى صديق له تواجد في المكتب، تطلع الصديق لثوان نحو الشخص المغادر، قبل أن يسأل بفضول وهو يشير نحوه:

- أليس هذا هو الكاتب الشهير ....

- نعم .. هو بعينه

قالها مسؤول النشر ثم تراجع في كرسيه، تنهد وهو يردف: كم أتأسف لحاله!

رأى علامات الدهشة على وجه صديقه، أطلق تنهيدة حارة .. أشعل سيجارته .. هز رأسه بأسف وهو يكمل:

- مسكين حقا .. منذ وفاة زوجته وابنته الوحيدة في حادث سيارة من عامين لم يكتب شيئاً .. لم يكتب أى شئ على الإطلاق حتى فكرنا أكثر من مرة في فسخ التعاقد معه .. كنت أظنه تجاوز مرحلة الصدمة والحزن من فترة طويلة .. يحيرني كثيرا أمره بالفعل .. يبدو أن سبباً أقوى من الحزن يمنعه من الكتابة، سبب قاهر حقا لا نعلمه

الفهرس

اجتهاد ٤
توصية ١٠
الجميلة جدا والوحش ١٦
الراشي ٣١
السفينة ٣٩
المشاغب ٥٤
الأمين ٧١
قصة حب مثالية ٧٨
موعد جيد ٨٥
أضواء ٩٣
ممثل ١٠٩
شمعة ١١٧
صوت ١٢٢
هوس ١٢٩
شقاوة ١٣٥